الفصل التاسع والأربعون

الحياة اليومية

لا نستطيع ان نتصور وجود حياة يومية صاخبة أو متغيرة عند أهل الوبر ؛ فحياة البادية في غاية البساطة ساذجة الى أقصى حدّ من السذاجة . تذهب وتأتي على وتيرة واحدة ونمط واحد . فليس للرجل في البادية من عمل سوى رعي الإبل والإشراف عليها . وهو عمل لا يستوجب مجهوداً ولا يتطلب بذل طاقة ، لذلك يعهد به الى الأحداث في الغالب ، أما الرجال ، فليس لهم عمل مهم يذكر . لذلك يقضون معظم وقتهم جلوساً بغير عمل ، أو في التحدث بعضهم الى بعض . وحياة على هذا النحو تجبل الانسان على الكسل والخمول . فصار الأعرابي خاملاً كسولاً على صحة جسمه وتوقد ذهنه وذكائه . يحسن الكلام ويجيد تنميق الحديث ويتلاعب في كلامه وفي ايجاد معانٍ وحيل ومخارج له ، ويسترسل في الخيال وفي التصور وفي شعوره الذي سبكه وصاغه في كلام موزون منظوم مقفّى ، وفي كلام مسترسل غير مقفى ، وفي كل حرفة لسانية ، أو تعبير عن شعور ذاتي كالحب والبطولة وما شاكل ذلك مما لا يحتاج الى مجهود وعمل . أما النواحي العملية من الحياة ، النواحي التي تحتاج الى جهد وعمل ، فقد ترك أمرها لغيره ، بل ازدراها وازدرى شأن من يعمل بها ، واحتقر الحرف والصناعات ، لأنها من عمل الأعاجم والعبيد . ورأى ان من العار ان يصاهر أهل الصناعات والحرف والزراعة ، لأنهم دونه في المنزلة بكثير . وهو غير ملوم على نظرته هذه الى العمل اليدوي المجهد ، فالانسان عدوّ ما جهل معظّم لما يكون عنده ، كاره لما لا يملكه ويكون عند غيره . فقد حرمنه الطبيعة من كل

ما يحمله على بذل الجهد للاشتغال في صناعة او حرفة او زراعة ، ولم تهيّىء له البذور والمواد اللازمة لاقامتها ، لذلك جهلها فحاربها وازدراها وازدرى شأن من يشتغل بها . كما سأتحدث عن ذلك في المواضع المناسبة لهذا البحث .

والبادية ارضون واسعة شاسعة جرداء في اغلب ايام السنة ، خلا مواسم نزول الغيث وهي قليلة ، وقد تنحبس . اذا امطرت السماء ظهر (الربيع) ، فتفرح الارض وتكسى بحضرة تتخللها اوراد وأزهار وشقائق ، ويضحك عندئذ وجهها ، بعد يبوس وعبـــوس ، ضحكاً يُفهم الانسان الحضري عندئذ سرّ تعلق الاعرابي ببادیته . ففي البادية على ما فيها من شقاء وجفاف ويبوسة ؛ سحر ينسي الانسان صعوبة الحياة ، وحلاوة تنسيه مرارة الايام القاسية التي يعيشها البدوي في باديته . بعيداً عن الحضر وعن المجتمع المتكثف في مستوطنة او قرية او مدينة ، بل بعيداً حتى عن ابناء عشيرته . فمن طبيعة الصحراء ان قلبها لا يتقبل المجتمعات الكبيرة ، بل يفضل المجتمعات الصغيرة المتناثرة . فصارت البيوت فيها متباعدة منتشرة هنا وهناك انتشار النجوم في السماء . كل بيت مسؤول عن حماية نفسه وعن وقاية افراده من اذى الانسان والحيوان ، وعن حماية جاره وذوي رحمه وأبناء عشيرته . لأنه ان لم يفعل ذلك ، لم يجد من يدافع عنه ايام الشدة والعناء ، حتى صار الجار عنده بمنزلة الأهل والدار .

وحياة من هذا النوع هي حياة لا بد وأن تصير بسيطة جداً ساذجة الى اقصى حدود السذاجة . احاديثها اليومية تكرار واعادة ، وأحاسيسها نسخة لأحاسيس اليوم الماضي والايام السابقة . وافق التفكير فيها محدود ضيق . اذ لا مجال فيها للفكر ان يتفتق وأن يتفتح ويتوسع . ومن هنا طبعت الحياة العقلية والاجتماعية بطابـــع الفطرة والبساطة . وهي لا يمكن الا ان تكون كذلك . وكيف تريد منها ان تكون غير ذلك ، ومحيطها وظروفها هي على هذا النحو من الحدود والقيود !

وفي وسع الرجل بفضل ما أوتي من قوة ومن بسطة في الجسم ، قطع المسافات لزيارة الاقارب والجيران ، لقتل الوقت بالكلام معهم ، او للتحدث عن غزو سابق او عن شؤون سيد القبيلة او عن اشراف العشيرة او للخروج الى صيد لاصطياد ما قد يجده من حيوان مسكين ، حتّم عليه سوء طالعه ان يولد في هذه الارض الفقيرة ، فهو مثل الانسان تائه بهذه الحياة في هذه البادية الواسعة المكشوفة الشحيحة ، يشكو الى خالقه من ظلم طبيعة أنبتته في هذه الارض الفقيرة ، على

حين زرعت غيره في غابات كثيفة ذات ظروف حياتية غنية ، فيها من المأكول أشكال وألوان . بينما هو لا يكاد يجد امامه شيئاً ، حتى اذا اشتد عوده واستوى ، وقع في قبضة اناس جائعين ، لا يقل جوعهم عن جوعه ، فلا يخرج من قبضتهم ابداً . يتلذذون في اكله شواءً ، ويتحدثون عن صيدهم ويفتخرون به . وقد يكون الصيد ظبياً او ضباً او يربوعـاً . ويفخرون بصيدهم لانهم محرومون من اللحم ، وكل ما تقع عليه عين المحروم من الأكل ، هو أكل لذيذ دسم في نظر المحروم .

اما الاطفال فهم اطفال اينما وجدوا . لا يعرفون من اسرار الحياة وعنـائها وشقائها شيئاً . همهم اللعب ، يلعب الذكور مع الاناث ، الأخوة مع الأخوات ، فهم اطفال البيوت . وقد يلعب معهم اطفال جيرانهم ، اذا كانت البيوت متقاربة . يلعبون العاباً هي من نتاج طبيعة ارضهم ومحيطهم . لا يعبأون بحرّ ولا برد ، ولا بريح او بأشعة شمس محرقة ، وما الذي يفعلونه تجاه طبيعة قوية قهارة لم تعطهم امكانيات بناء بيوت من مدر يأوون اليها لحماية انفسهم من اشعة الشمس لهم على الأقل . وانما مكنت آباءَهم من صنع بيوت من وبر او صوف او شعر معز قد تقيهم من الأشعة بعض الوقاية ، بأن تمنحهم شيئاً من ظل . ولكنها عاجزة عن حمايتهم من البرد ومن الحر ومن الغيث اذا نزل عليهم مدراراً . لا سيما اذا طال عهد هذه البيوت ولعب بها العمر ، وصارت مهلهلة بالية ، ذات جيوب وشقوق كالغرابيل ، تعبث بها الرياح ساخرة من جهل هذا الانسان القانع الراضي بحياته هذه على ما فيها من شظف وعسر وفقر ، بينما هناك مجال واسع له لتحسين حاله ، لو حرك نفسه واستخدم عقله وذراعه لتسخير الطبيعة في خدمته ، لتحسين وضعه والترفيه عن نفسه ولو الى حد .

الرجل :

والرجل بحكم تفوق بنيته على بنية المرأة ، وبفضل قوة عضلاته ومقاومته للطبيعة وللأخطار سيد الأسرة و (رب العائلة) و (بعل المرأة) ، اي سيدها . منح نفسه حقوقاً لم يعطها للنساء . وبنى مفاهيم العدل والحق على اساس ان العدل هو القوة ، فاغتصب حق المرأة والبنت والولد والرجل العاجز لقوته ولأنه مقاتل ، اما غيره

من المذكورين فعاجز عن القتال ، فحرمهم من الحقوق . ومنها حقوق الإرث ؛ وأباح لنفسه حق الاستمتاع بملاذ الحياة ، وفي جملتها الاستمتاع بالنساء وبالخمور وبقية الأطايب . فله ان يتزوج ما يتمكن من النساء ، وجعل بيده حق الطلاق ، وجوّز لنفسه الاتصال بأية امرأة شاء وان كان متزوجاً ، وله ان يتسرى ما يشاء ، وله غير ذلك من امتيازات وحقوق ، بسبب قوته وتفوقه على الجنس الآخر وعلى المستضعفين من المخلوقات ، لأن الحق للمخلوق القوي ، ولا حق عند القوي لانسان ضعيف .

اللحية :

ومن الرجولة الشجاعة والاقدام وعدم المبالاة والمحافظة على مقوّمات الرجل وما منحته الطبيعة اياه من ملامح ميزته عن المرأة ، وأهمها : اللحى . فاللحية عند العرب رمز الرجولة وزينتها وسيماء تكريم الرجل وتقديره . واهانة اللحية عند العرب وعند الساميين هي من اعظم الاهانات التي لا تغتفر ، وتقبيلها عندهم من علامات التقدير والاحترام والاجلال . ويعد نتف اللحية او جزها او حلقها اهانة كبيرة تنزل بصاحبها . يفعلها من يريد الازدراء بشأن الملتحي ، ويعد عدم الاكتراث بتسوية اللحية من سيماء الحزن او الغيظ او المرض او الارتباك وتضعضع الحال . ونجد في التوراة ان في جملة الاهانات التي تلحق بالناس حلق انصاف لحاهم [1] . ويقسم باللحية ، ويعدّ القسم بها من الايمان المغلظة . يمسك بها الحالف بيده اليمنى فيحلف بحقها انه لا يكذب او انه سيفعل ، او ما شابه ذلك . ولكن العادة ان الحالف بها يكون بامساكها باليد ، واذا مدّ غريب يده على لحية رجل اكبر منه في المنزلة والدرجة وأقسم بها او استجار بها ، وجب على صاحبها الأخذ بقسمه والاهتمام بأمره ومساعدته . وقد يمسك غريب محتاج او مطارد بلحية سيد قبيلة او شريف قوم ، ويبين له انه في حماه ومنعتـــه ، وعلى الرجل بذل الحماية والمنعة له .

والعربي يكرم لحيته ، ولا يحلقها ، وتكون لحيته مدببة في الغالب على نمط

---

١ صموئيل الثاني ، الاصحاح العاشر ، الآية ٤ ، ماموس الكتاب المقدس (٢/٢٩١) .

اللحى الفرنسية . ويصرف بعض الوقت لاصلاحها حتى لا تكون متناثرة بشعة ، وقد يعبر الانسان بلحيته ، فيقال : له لحية تيس . وتنسب عادة اكرام اللحى الى سنن ابراهيم . وقد تكون اللحية كثة كبيرة منتظمة . ويقال للرجل ذي اللحية الطويلة : (اللحياني) و (رجل لحيان) [1] .

ويحلف العربي بشاربه ، فاذا اراد اعطاء عهد او جوار او اي عهد آخر واقسم بشاربه ، وجب عليه الوفاء بعهده . ومن عادة العرب تخفيف الشارب ، وقد تحف وتنسب هذه العادة الى سنن ابراهيم ، ومن السنن الاخرى تقليم الاظافر وحلق العانة [2] . وذكر ان الرسول كان يقص شاربه وأنه قال : قصوا الشوارب وأرخوا اللحى وخالفوا المجوس . وورد انه قال : (خالفوا المشركين ووفروا اللحى وأحفوا الشوارب) [3] .

ويعدّ قص الشارب من (الفطرة) . وهي عشرة او خمسة امور [4] . يذكرون انها من سنن ابراهيم ومن اتبعه من العرب . وفي جملتها الختان .

ويذكر العلماء ان الله ابتلى (ابراهيم) بسنن الفطرة ، وهي التي ذُكرت في القرآن في قوله تعالى : (وإذِ ابتلى إبراهيمَ ربُّهُ بكلماتٍ فأتمّهنّ) [5] ، وهي الكلمات العشر : خمس في الرأس ، وخمس في الجسد . فأما التي في الرأس فالمضمضة والاستنشاق وقصّ الشارب والفرق والسواك . وأما التي في الجسد فالاستنجاء وتقليم الاظافر ونتف الإبط وحلق العانة والختان . فلمّا جاء الاسلام ، قرّرها سنة من السنن [6] .

والعرب من أصحاب الشعور السوداء . وهم مثل غيرهم يفاخرون بشعر

١ تاج العروس (١٠/٣٢٤) ، (لحى) .
٢ القسطلاني ، ارشاد الساري (٢/١٦١) .
٣ زاد المعاد (١/٤٥ وما بعدها) .
٤ زاد المعاد (١/٤٤ وما بعدها) .
٥ البقرة ، الآية ١٢٤ .
٦ بلوغ الأرب (٢/٢٨٧) .

رأسهم ، ويتركونه ينمو ولا يحلقونه على نحو ما كان يفعل اليهود والمصريون [1] . وكانوا يدهنونه ؛ ويمشطونه بالمشط ، ويتركونه يتدلى على المنكبين . وقد يضفرونه ضفائر . ومنهم من يضفره ضفيرتين يجعلها تتدليان على جانبي الوجه . وذكر ان العرب تسمي الخصلة من الشعر أو الضفيرة قرناً . ولهذا عرف (المنذر ابن ماء السماء) جدّ (النعمان بن المنذر) بـ (ذي القرنين) لضفيرتين كانتا في قرني رأسه [2] . والعرب تكني عن العربيّ بالجعد وعن العجمي بالسبط [3] . والجعد من الشعر خلاف السبط ، أو هو القصير منه . وهم يعنون بذلك ان سبوطة الشعر هي الغالبة على شعور العجم من الروم والفرس ، وجعودة الشعر هي الغالبة على شعور العرب . وكانوا اذا قالوا رجلاً جعداً عنوا رجلاً كريماً ، كناية عن كونه عربيّاً سخيّاً ، لأن العرب موصوفون بالجعودة . وقد يقصدون بذلك رجلاً بخيلاً لئيماً ، فهو من الأضداد . وذكر ان العرب تقول : رجلاً جعداً ، اذا كان قصيراً متردد الخلق . وإذا قالت جعد السبوطة ، فإنها تريد بذلك المدح ، إلا ان يكون مفلفلاً كشعر الزنج والنوبة ، فهو حينئذ ذمّ [4] .

وكان الرسول يسدل شعره ، ثم فرقه . والفرق ان يجعل شعره فرقتين كل فرقة ذؤابة . والسدل ان يسدله من ورائه ولا يجعله فرقتين [5] . وذكر انه كان يضفره غدائر ، والغدائر الضفائر . وكان إذا طال شعره جعله غدائر أربعاً . وكان يكثر دهن رأسه ولحيته ويكثر القناع كأن ثوبه ثوب زيّات . وكان يحب الترجّل ، وكان يرجل نفسه تارة وترجله عائشة تارة [6] . وترجيل الشعر تسريحه .

١ أشعياء ، الاصحاح السابع ، الآية ٢٠ ، حزقيال ، الاصحاح الخامس ، الآية الأولى ، قاموس الكتاب المقدس (٦٨/١ وما بعدها) .

٢ تاج العروس (٣٠٧/٤) ، (قرن) .

٣ تاج العروس (١٤٩/٥) ، (سبط) .

٤ تاج العروس (٣٢٠/٢ وما بعدها) ، (جعد)

٥ زاد المعاد (٤٤/١) .

٦ زاد المعاد (٤٥/١) .

وقد تقوم به المرأة [1] . ويكون ذلك بالمشط . قال امرىء القيس :

كأن دماء الهاديات بنحره عصارة حنّاء بشيب مرجّل [2]

وللعرب عادات بالنسبة الى شعرهم . فهم إذا غضبوا وأرادوا الأخذ بالثأر ، لم يغسلوا شعورهم وتركوا تدهينها حتى يأخذوا بثأرهم . كالذي رووه من قصة امرىء القيس ، حينما جاءه خبر مقتل والده . وهم اذا أرادوا إذلال رجل واهانته كإذلال سيد قبيلة أو شريف قوم سقط أسيراً ، وأرادوا الإمعان في اذلاله جزّوا ناصيته وتركوه يذهب فذلك عندهم شرّ إذلال . والناصية مقدم الرأس [3] .

ويستوي الرجل والمرأة في دهن شعر الرأس . ولا زال الأعراب يدهنون شعورهم على الطريقة القديمة . ويستعمل أغنياؤهم الدهون الجيدة المستوردة من الخارج . مثل (الزيت) المطيب بالعطور وبأنواع الطيب ، يدهنون به شعورهم ولحاهم في أيام الأفراح بصورة خاصة وفي الأعياد . وكان الرومان واليونان يدهنون الجسم كله بالزيت . ويعدّ دهن شعر الرأس من علامات الفرح والسرور ، وتركه من علامات الغم والحزن [4] . وقد كان الصحابة يطلون شعر رأسهم ولحيتهم بالدهن ليزيلوا شعث رؤوسهم ولحاهم به [5] .

ويضفر شعر الأولاد والبنات ضفائر ، تتدلى على جانبي الوجه ومؤخرة الرأس . وأما الرجال ، فكان منهم من يضفر شعر رأسه ضفيرتين يتركهما تتدليان على جانبي وجهه ، ومنهم من يضفره جملة ضفائر ، قد تبلغ سبعاً . وعادة ضفر شعر الرأس سبع ضفائر عادة معروفة عند غير العرب أيضاً . وكان شعر (شمشون) المشهور مضفوراً في سبع خصل [6] . ولا زال الأعراب يضفرون شعورهم . ويقال للضفيرة (الذؤابة) . والذؤابتان اللتان تسقطان على الصدر .

---

١ شرح النووي على صحيح مسلم ، المطبوع حاشيه على ارشاد الساري ، القسطلاني (٢/٣٣٨) ، (باب جواز غسل الحائض رأس زوجها وترجيله) .

٢ تاج العروس (٧/٣٣٧) ، (رجل) .

٣ تاج العروس (١٠/٣٦٩) ، نصا .

٤ مرامير ٥،٢٣ ، متى ١٧،٦ ، صموئيل الثاني الاصحاح ١٤ ، الآية ٢ ، قاموس الكتاب المقدس (١/٥٢٢) .

٥ القسطلاني ، ارشاد الساري (٢/١٦١) .

٦ قاموس الكتاب المقدس (١/٦١٩) .

ويقال لها (غديرتان) . وكل عقيصة غديرة . قال امرؤ القيس :

غدائره مستشزرات الى العلى تضل العقاصي في مثنّى ومرسَل [1]

ولما قدم (ضِمام بن ثعلبة) من (بني سعد) على الرسول ، كان رجلاً جلداً أشعر ذا غديرتين . فلما ولى قال رسول الله : إن صدق ذو العقيصتين [2] . ويقال لها (القرنين) كذلك . والعرب تسمي الخصلة من الشعر القرن . والقرن الذؤابة عامة . ومنه : الروم ذات القرون ، لطول ذوائبهم [3] .

وهم مثل غيرهم من الناس يعتبرون الشعر الأشيب أكليل مجد للشيخ ، والشعر الأبيض رمزاً للحكمة والجلالة [4] . وذلك بسبب ان تقدم العمر بالإنسان يكسبه خبرة وحكمة ، لما يراه في حياته من تجارب وعظات . لذلك أقاموا للسن وزناً كبيراً في أخذ الرأي وفي التقدم في الدخول وفي الجلوس في المجالس .

ولم يكن شيوخ الجاهلية وشيبها أقل عناية بمظهرهم وبمرآهم من شيوخ هذا اليوم وشيبه ، فحاولوا ما قدروا إخفاء شيبهم واطفاء لعب الزمان بشعرهم وبأوجههم بمختلف الوسائل والسبل ، ومنها إخفاء الشيب بصبغه وباستعمال الخضاب ، وبعضه أسود ، كما خضبوا بالعِظْلم وبالحنّاء [5] . وصبغوا لحاهم . ولم يهملوا العيون ، فاكتحلوا لتظهر براقة مؤثرة . ولا تزال « الوسمة » ، وهي خضاب أسود معروف ، ويستعملها بعض الناس اليوم .

وذكر بعض علماء اللغة ان الخضاب ، اخفاء الشيب بالحنّاء ، واذا كان بغير الحناء قيل : صبغ شعره ، ولا يقال خضبه . وذكر آخر ان أول من خضب بالسواد من العرب (عبد المطلب) [6] . وقد تعلمه من أهل اليمن . إذْ كان قد زارهم فوجد شيبَهم يخضبون شعورهم بالسواد ، فأعطوه خضاباً ، فجاء الى مكة ، وعنه شاع الخضاب بين أهلها .

---

١ تاج العروس (٣/٤٤١) ، (عدر) .
٢ الطبري ٣/١٢٤ وما بعدها) ، (قدوم ضمام بن ثعلبه وافدا عن بنى سعد) .
٣ تاج العروس (٩/٣٠٧) ، (قرن) .
٤ دانيال ، الاصحاح السابع ، الآية ٩ ، قاموس الكتاب المقدس (١/٦١٩) .
٥ المعرب (ص ١٦) ، تاج العروس (١/٢٣٦) ، (حضب) .
٦ تاج العروس (٢/٣٦٦) ، (الكويت) ، (حضب) .

وقد استعملوا الزعفران في صبغ لحاهم وشعورهم . واستعملوا لون الزعفران في صبغ ثيابهم أيضاً . وذلك لغلاء ثمن (الزعفران) الطبيعي . كما استعمل (العصفر) في الصبغ ، وهو من نبات ينبت في جزيرة العرب ، اذا صبغ الثوب به قيل : عصفر الثوب به [1] . كما استعملوا (الكتم) في تخضيب الشعر . وهو نبت يخلط بالحنّاء ويخضب بالشعر فيبقى لونه . وقد أشار اليه (أميّة بن ابي الصلت) بقوله :

وسوّدت شمسهم اذا طلعت بالجلب هفــاً كأنه كتم

والمكتومة : دهن من أدهان العرب أحمر . يجعل فيه الزعفران أو الكتم . وطبخوا الكتم بالماء واستخرجوا منه مداداً للكتابة [2] .

ويكون الخضاب بالحنّاء ، كما يكون بالحناء والكتم كما ذكرت ، وقد يكون بالحناء والوسمة . وتجعل الوسمة الشعر أسود فاحماً . وكل هذه من النباتات التي تنبت في الحجاز وفي اليمن وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب . وقد استعملوا (السواد) ويكون بالوسمة في الغالب لتسويد شعر الجارية والمرأة الكبيرة والشيخ للغش والتدليس ، حتى اذا جاء سيّد لشراء جارية ظن أن شعرها على هــذه الصورة من السواد ، أو جاء رجل يطلب المرأة الكبيرة ظن أنها أصغر من عمرها ، أو عرض الرجل الشيخ نفسه للزواج ، ظهر أصغر من عمره . ونظراً الى ما في هذا العمل من غش نهي عنه في الاسلام [3] .

وخوفاً من أن يقملوا لبّدوا شعر رؤوسهم بالخطمي والصمغ . وقد عرف من يفعل ذلك بـ (الملبد) . وقيل : ان « الملبد » المحرم ، الذي لبد شعره حتى لا يقمل ، اذا دخله الغبار بعد العرق [4] . وقد كان القمل قد عشش في آباط كثير من الناس ، لا سيما الفقراء والاعراب منهم . وفي شعر رؤوسهم وفي المواضع المشعرة من أجسامهم ، نظراً لسوء وضعهم من الناحية الاقتصادية وفقرهم : وعدم تمكنهم من غسل أجسامهم . وقد أشير الى القمل والتلبيد في الشعر . ذكر أن القمل

١ تاج العروس (٣/٤٠٨) ، (عصفر) .
٢ تاج العروس (٩/٣٩) ، (كتم) ، (٩/٩٣) ، (وسم) ، العقد الفريد (٣/٤٩) .
٣ ابن قيم الجورية ، زاد المعاد (٣/١٨٣ وما بعدها) .
٤ المعاني الكبير (١/٤٢٦) ، تاج العروس ٢/٤٩١) ، (لبد) .

كان يتهـافت من رأس (كعب بن عجوة بن عديّ) على وجهه ، وكان محرماً ، فرآه الرسول ، فأمره أن يحلق رأسه وأن يطعم فرقاً بين ستة مساكين [1] .

وذكر أن التلبيد ، أن يأخذ شيئاً من خطمى وآسٍ وسدر ، وشيئاً من صمغ ، فيجعله في أصول شعره وعلى رأسه ، كي يتلبد شعره ولا يعرق ويدخله الغبار ، فيخمّ ويقمل [2] .

وتطيّب الرجال بالطيب ، ودهنوا شعورهم بالدهن المطيب . وكانوا يتطيبون اذا ذهبوا الى زيارة بيت ، وفي المجتمعات العامة كالمواسم والأفراح . وللرجال طيب يختلف عن طيب النساء .

وقد يرقن الرجل كما ترقن المرأة بالحناء وبالزعفران . يقال : أرقن الرجل لحيته ورقنها ، أي خضبها بالحناء وبالزعفران . قال الشاعر :

ومسمعة اذا ما شئت غنت مضمخة الترائب بالرقان [3]

والرقان والرقون الحناء والزعفران .

ويكثر العرب من حمل (العصا) معهم . اذ هي ضرورة بالنسبة لحياتهم . يستعينون بها في طرد الكلاب عنهم ، ورد الحيوانات المتوحشة التي قد تصادفهم ، كما يستعملونها في ضرب إبلهم حتى تطيع أوامرهم . حتى أنهم جعلوا العصا رمزاً لأمور عديدة . منها الطاعة والجماعة . ومنها (شق العصا) بمعنى مخالفة الجماعة . والعصا الجماعة . ومنها (القى المسافر عصاه) ، أي بلغ موضعه وأقام . وضرب مثلاً لكلّ من وافقه شيء فأقام عليه . ومنها (هو لين العصا) ، أي رقيق لين حسن السياسة ، و (هو ضعيف العصا) ، أي قليل ضرب الإبل . و (إن العصا من العصية) ، يقال ذلك اذا شُبه بأبيه ، أي : إن بعض الأمر من بعض [4] .

كما حملوا القضب ، وهي من علائم السلطة والقوة والحكم والنفوذ عندهم . وقد ورد في خبر ارسال رسول الله (عبـاس بن أبـي ربيعة المخزومي) الى

١ الحيوان (٣٧٧/٥) ، (هارون) .
٢ المصدر نفسه .
٣ تاج العروس (٢١٨/٩) ، (رقن) .
٤ تاج العروس (٢٤٤/١٠ وما بعدها) ، (عصا) .

(الحارث) و (مسروح) و (نعيم) بني عبد كلال من حمير ، انهم كانوا يحملون قضباً معهم . وهي من الأثل : قضيب ملمّع ببياض وصفرة وقضيب ذو عُجَر وكأنه خيزران ، وقضيب أسود بهيم كأنه من ساسم [1] . وكان أحدهم اذا جلس وفكر في أمره ، أو أراد الاجابة على سؤال يحتاج الى عمل روية نَكَسَتْ الارض بالقضيب الذي يحمله بيده .

المرأة :

والمرأة في المحيط البدوي أنشط وأكثر عملاً من الرجل ؛ فعليها تهيأة الطعام وحلب النياق وغسل الملابس وغزل الصوف والوبر ، والعناية بالأطفال وتحضير مادة الوقود ، الى غير ذلك من أعمال لا يقوم بها الرجل ، لأنها من عمل المرأة ، ولا يليق بالرجل القيام بها .

ولم نقرأ في كتب اهل الاخبار ما يفيد سيادة النساء على القبائل ، في الجاهلية القريبة من الاسلام . ولم نقرأ في المسند ما يفيد بوجود ملكات حكمن اليمن . بينما قرأنا في الكتابات الآشورية وجود ملكات عربيات حكمن قبائل عربية ، كانت تنزل البوادي من بادية الشام . ووقفنا أيضاً على حكم الملكة (الزباء) لتدمر وذلك بعد الميلاد . ولكننا نقرأ في أخبار أهل الاخبار أخبار كاهنات ، كانت لهن مراكز خطيرة عند القبائل . وكذلك أخبار حاكمات حكمن فيما بين الناس في الخصومات . وقد كان منهن من يقرأ ويكتب كما سنرى فيما بعد .

وللمرأة الشريفة ذات السؤدد حظ في المجتمع لا يدانيه حظ المرأة الحرة الفقيرة . فسؤددها حماية لها ودرع يصونها من الغض من منزلتها ومكانتها . وأسرتها قوة لها ، تمنع زوجها من اذلالها أو الحاق أي أذى بها ، وهي نفسها فخورة على غيرها لأنها من الأسر الكريمة . والعادة بالطبع أن الأسر الكريمة لا تزوج بناتها الا من أسر كريمة موازية لها في المنزلة والشرف . من ذلك قولهم : (استنكح العقائل ، اذا نكح النجيبات) [2] .

حال المرأة في الجاهلية :

وقد اختلف حال المرأة في الجاهلية عن حالها في الاسلام ، بسبب تغير الأحوال

١ ابن سعد (١/٢٨٢ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٩/٤١) ، (كرم) .

وتبدل الظروف . (فلم يكن بين رجال العرب ونسائها حجاب ، ولا كانوا يرضون مع سقوط الحجاب بنظرة الفلتة ولا لحظة الخلسة ، دون أن يجتمعوا على الحديث والمسامرة ، ويزدوجوا في المناسمة والمثافنة ، ويسمى المولع بذلك من الرجال الزير ، المشتق من الزيارة . وكل ذلك بأعين الأولياء وحضور الأزواج ، لا ينكرون ما ليس بمنكر اذا أمنوا المكر) [1] . (فلم يزل الرجال يتحدثون مع النساء ، في الجاهلية والاسلام ، حتى ضرب الحجاب على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم خاصة) [2] . (ثم كانت الشرائف من النساء يقعدن للرجال للحديث ، ولم يكن النظر من بعضهم الى بعض عاراً في الجاهلية ، ولا حراماً في الاسلام) [3] .

وما نراه اليوم من اعتكاف النساء في بيوتهن ومن عدم اختلاطهن بالرجال ومن التشدد في الحجاب وأمثال ذلك ، هو بين أهل الحضر خاصة . وقد كان هذا التحفظ معروفاً نوعاً ما عند أهل الحواضر والقرى في الجاهلية ، الا أن التزمّت والتشدّد في وجوب ابتعاد الرجل عن المرأة وانفصالها بعضها عن بعض انما نشأ في الاسلام ، بسبب تغير الظروف واختلاط العرب بالأعاجم ، وظهور حالات جعلت العوائل الكبيرة تحرص على حصر المرأة في بيتها . أما في البادية فإن المرأة لا تزال تشارك الرجل في أعماله وتجالسه وتكلمه ولو كان غريباً عنها ، لأن محيط البادية محيط بعيد عن مواطن الريبة والشبهات ، وينشأ البنات والأولاد فيه سوية ، ويلعبون سوية ويشبّون سوية ، ولذلك لم تنشأ عندهم القيود والحدود التي تفصل بين المرأة والرجل . وقد كان حال المرأة الأعرابية على هذه الحال في الجاهلية .

وقد عرفت المرأة بالكيد بين الجاهليين . ونظروا اليها نظرتهم الى الشيطان . وليست هذه النظرة العربية الى المرأة هي نظرة خاصة بالجاهليين ، بل هي نظرة عامة نجدها عند غيرهم أيضاً . بل هي وجهة نظر الرجل بالنسبة للمرأة في كل العالم في ذلك الوقت . وهي نظرة نجدها عند الحضر بدرجة خاصة ، لما لمحيط الحضر من خصائص التجمع والتكتل ، والتصاق البيوت بعضها ببعض ، ولما لهم من حياة اجتماعية واقتصادية وسياسية ، وقد تجبر المرأة على دس أنفها ، والاتصال بالغرباء ، فنشأ من ثم هذا الرأي بين أهل الحضر أكثر من الاعراب .

---

١ كتاب القيان ، من رسائل الجاحظ (١٤٨/٢) ، (تحقيق عبد السلام هارون)

٢ كتاب القيان (١٤٩/٢) .

٣ كتاب القيان (١٤٩/٢) .

وعرفت المرأة عندهم بالمكر والخديعة . إذ كان في وسعها استدراج الرجل والمكر به . وهم يتمثلون بمكر (الزبّاء) . واستدراجهـا (جذيمة الأبرش) اليها ، ثم فتكها به . على نحو ما ورد من قصص عنها في كتب أهل الأخبار . غير انهم يروون في الوقت نفسه قصة (قصير) معها ، وكيف تمكن من الأخذ بثأره منها ، في حيلة ومكر ومكيدة ، حتى فتك بها في قصة من قصص المكر والخديعة ، ضرب بها المثل [1] . وعُدّت المرأة كالحيّة في المكر .

ونظر الرجل الى رأي المرأة على ان فيه وهناً وضعفاً وانه دون رأيه بكثير ، وتصور ان مقاييس الحكم عندها ، دون مقاييسه في الدقة والضبط ، ولهذا رأى العرب ان من الحمق الأخذ برأي المرأة . فكانوا اذا أرادوا ضرب المثل بضعف رأي وخطله قالوا عنـه : (رأي النساء) [2] و (رأي نساء) وقـالوا : شاوروهن وخالفوهن ، لما عرف عن المرأة من تأثر بأحكام العاطفة عندها . حتى ذهب البعض الى عدم وجود رأي للمرأة ، ولهذا قالوا : يقال للرجل (الفند) إذا خرف وخف عقله لهرم أو مرض ، وقد يستعمل في غـير الكبر وأصله في الكبر . ولا يقال (عجوز مفندة ، لأنها لم تكن في شبيبتها ذات رأي أبـداً فتفند في كبرها . وفي الكشاف : ولذا لم يقل للمرأة مفندة لأنها لا رأي لهـا حتى يضعف . قال شيخنا : ولا وجه لقول السمين انه غريب ، فإنه منقول عن أهل اللغة . ثم قال : ولعلّ وجهه أنّ لها عقلاً وإن كان نافصـاً يشتد نقصه بكبر السن) [3] .

ويكني العرب عن المرأة بـ (الدُّمية) . والدمية الصنم . وقيل : الصورة المنقشة : العاج ونحوه . وقيل هي الصورة . وقول الشاعر :

والبيض يرفلن في الدُمى والريـط والمذهب المصون

يعني ثياباً فيها تصاوير [4] .

ويقال للمرأة البذيئة القليلة الحياء (العنفص) . وقال بعض علماء اللغة انها

---

١ الثعالبي ، ثمار القلوب (٢١١) ، المبداني (٢/٢٧٢) ، تاج العروس (١/٢٣٧) ، (خطب) .

٢ الثعالبي ، ثمار القلوب (٣٠٦) .

٣ تاج العروس (٢/٤٥٤) ، (فند) .

٤ اللسان (١٤/٢٧١) ، (دمي) .

المرأة القليلة الجسم الكثيرة الحركة . أو الداعرة الخبيثة . وقيل هي القصيرة المختالة المعجبة . أو المرأة الكثيرة الكلام ، وهي المنتنة الريح[1] . وقد ذمت المرأة (النمامة) ، والبذيئة التي تشتم الناس وتنطق بالبذاء . والسليطة اللسان التي تتطاول على الناس ، ولا تبالي أحداً . وقد كان بعض الناس يحرضون أمثال هؤلاء النسوة لاهانة كرام الناس والتحرش بهم ، لما يعرفونه من ان في طبع الرجل الكريم عدم الردّ على المرأة رداً قبيحاً والتعرض لها بسوء .

وتشائموا من بعض النسوة . وقالوا : (مرأة مشؤومة) ، و (عقرى حلقى) ، أي عقرها الله وحلقها ، بمعنى حلق شعرها أو أصابها بوجع في حلقها ، أو أنها تعقر قومها وتحلقهم بشؤمها وتستأصلهم[2] . وقد كانوا يطلقونها إذا تشاءم الزوج أو أهله منها ، لاعتقادهم الشديد بالشؤم . وتشاءموا من الفرس الأشقر ومن عتبة الباب ، ومن أشياء أخرى سأتحدث عنها في موضوع التفاؤل والتشاؤم عند العرب .

وجمال المرأة في حلاوة العينين ، وفي جمال الأنف ، والملاحة في الفم . قال الشاعر :

خزاعيّة الأطراف مرّية الحشا فزارية العينين طائيّة الفم[3]

المرأة القبيحة :

وذكر بعض علماء اللغة ان العرب تصف بـ (السعلاة) العجائز والخيل . وقيل السعالى : النساء الصخابات البذيئات ، والمرأة القبيحة الوجه السيئة الخلق . ومن ذلك قول الأعشى :

ونساء كأنهن السعالى[4] .

والعرب تكني عن المرأة بالعتبة والنعل والقارورة والبيت والدمية والغل والقيد والريحانة والقوصرة والشاة والنعجة[5] .

١ تاج العروس (٤/٤١٠) ، (العنفص)
٢ تاج العروس (٣/٤١٥) ، (عقر) .
٣ الدينوري ، عيون الأخبار (٤/٢٧) ، (كتاب النساء) .
٤ تاج العروس (٧/٣٧٦) ، (سعل) .
٥ تاج العروس (١/٣٦٤) ، (عتب) .

وما قلته يمثل الفكرة العامة عن المرأة بين سواد الناس . غير ان هناك نسوة اشتهرن بالعقل والحكمة عند الجاهليين . وكنّ مرجعاً للرجال في أخـذ الرأي . حتى إن منهن من تولين أمر الحكومات ، وقد سبق ان ذكرت فيما مضى ان قبائل بادية الشام كانت تحت حكم ملكات في أيام الآشوريين . ومنهن الملكات (شمس) و (زبيبة) . كما أشرت الى الملكة (الزبّاء) . فلم يجد العرب قبل الميـلاد ولا بعده غضاضة من تعيين النساء ملكات عليهم . وقد كن يصاحبن الرجال الى القتال لإثارة هممهم عند اشتداد المعارك ولمداواة الجرحى ، وحمل الماء الى العطشى من المقاتلين . وقد كانت (رفيدة) تداوي جرحى المسلمين في مسجد الرسول بيثرب[1] . وكانت (زينب) طبيبة (بني أود) تعالـج المرضى وحازت على شهرة بين العرب[2] .

حتى الشعر ، برزت به شاعرات . مثل الخنساء ، وخرنق ، وجليلة ، وكبشة أخت عمرو بن معديكرب ، وغيرهن . ومنهن من حكمن بين الشعراء المتنافسين في تفضيل شعر شاعر على شعر شاعر آخر . وكان من بينهن كاتبات ومتاجرات الى غير ذلك من حقول الأعمال التي تحتاج الى عقل وذكاء .

زينـة المرأة :

والمرأة الحضرية أكثر تفنناً واعتناءً بنفسها من الأعرابيـة ، بسبب اختلاف المحيط والوضع الاقتصادي . ولها من أمور الزينة ما لا تعرفه الأعرابيات ، من وسائل تجميل وتحلية جسم وملبس . ولا سيما النساء الغنيات القريبات من مواطن الأعاجم . فقد تأثرن بالأعجميات وأخذن منهن ما راق لهن من ملبس وزينـة وطيب وحلية .

والعـادة ان المرأة تضفر شعر رأسهـا ضفائر وغدائر ، أمـا الرجـال فيتخذون لهم ضفيرتين ، تتدليان على طرفي الوجه الى المنكبين[3] . ويقال للضفيرة :

١ نهاية الأرب (١٩١/١٧) .
٢ جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية (٤٠/١) ، (١٩٥٧ م) .
٣ تاج العروس (٣٥٢/٣) ، (ضفر) .

العقيصة . وذكر ن (العقيصة) الذؤابة . وذكر بعض علماء اللغة ان كل عقيصة غديرة . والغديرتان الذؤابتان تسقطان على الصدر . وقيل الغدائر للنساء ، وهي المضفورة . والضفائر الرجال [1] . وقيل العقص الفتل ، أي فتل الشعر ، وهو ان يلوى الشعر حتى يبقى ليّه ثم يرسل . وذكر بعض علماء اللغة ان العقص ان تأخذ المرأة كل خصلة من شعر فتلويها ثم تعقدها حتى يبقى فيها التواء ثم ترسلها ، فكل خصلة عقيصة . وقد عرف (ضمام بن ثعلبة) أحد بني سعد بن بكر بـ (ذي العقيصتين) ، وكان أشعر ذا غديرتين . وكان خصل شعره عقيصتين وارخاهما من جانبيه . وهو من الصحابة [2] .

ويعدّ شعر المرأة من أثمن الأشياء عندها لذلك تستعز به وتحافظ عليه ، وتسعى لاثارته وتنشيطه ، وهي لا تحلقه إلا إذا نزلت بها نازلة ، مثل موت زوجها أو عزيز آخر عليها ، ويعدّ ذلك غاية في التضحية وفي اظهار حزنها على رجلها الراحل العزيز [3] . فاذا مات عزيز حلقت المرأة شعرها وذرّت التراب أو الرماد على رأسها ، اظهاراً لشدة ألمها وحزنها على ميتها . ويقال لها (الحالقة) . وقد لعن الرسول من النساء الحالقة والصالقة والخارقة . والحالقة التي تحلق شعرها في المصيبة [4] . وقد ضرب بها المثل في الشؤم . لأن من عادة الناس في الجاهلية انهم إذا أصيبوا بمصيبة حلقت النساء شعورهن . والى ذلك أشير في شعر الخنساء :

ولكني رأيت الصبر خيراً من النعلين والرأس الحليق

وأصل ذلك ان المرأة كانت إذا أصيب لها كريم حلقت رأسها وأخذت نعلين تضرب بهما رأسها وتعفره . وفي هذا المعنى جاء في الشعر :

ألا قومي أولو عقرى وحلقى لما لاقت سلامان بن غنم

ولهذا السبب اعتبرت الحالقة علامة من علامات الشؤم ونذيراً من نذر الفرقة

١ قال امرؤ القيس :

غدائره مستشزرات الى العلى تضل العقاص في مثنى ومرسل

تاج العروس (٣/٤٤١) ، (غدر) .

٢ تاج العروس (٤/٤٠٨) ، (عقص) .

٣ Hastings, A Dictionary of the Bible, II, p. 283

٤ تاج العروس (٦/٣٢٠) ، (حلق) .

بضرب بها المثل . وفي الحديث : (دبّ اليكم داء الأمم : البغضاء والحالقة) . (هي قطيعة الرحم والتظالم والقول السيء)[1] .

ويسرح الشعر بـ (المشط) . وقد عرفه الجاهليون ، وهو من آلات التجميل القديمة . . وقد أشير اليـــه في الحديث . كما أشير اليـــه في الشعر . ورد قول عبد الرحمن بن حسان :

قد كنت أغنى ذي غنى عنكُم كما أغنى الرجالِ عن المِشاطِ الأقرع[2]

وتمشط شعر العرائس (الماشطة) ، فتقوم بترجيله وتجميله لخبرتهـــا فيه[3] . ويكون المشط من خشب في الغالب ، وقد يعمل من دهب أو فضة أو من معدن آخر ، وقد يتخذ من (العاج) .

وتغسل المرأة رأسهـــا بطينٍ وأشنان وخطمى ونحوه لتنظيفه . وقـــد تغتسل بالطيب ، وذلك بالنسبة للغنيات . وإذا انتهت من غسله استعملت (الغسلة)[4] ، وهو ما تجعله المرأة في شعرها عند الامتشاط من طيب وورق الآس يطرّى بأفاويه من الطيب وتمتشط به[5] . والطين أنواع ، يختلف باختلاف طبقات الأرض . واجوده الحرّ النقي الخالص بعد رسوب الماء ، ويستعمل في تنظيف الشعر .

وقد كانت القبائـــل إذا أرادت الصبر في القتال ، والوقوف في الحرب الى النهاية وحتى النصر ، حلقت نساؤها شعورهن ، لبث الشجاعة في نفوس المقاتلين وإذكاء نار الشجاعة فيهم . وذكر ان (يوم تحلاق اللِّمم) ، إنما سمّي بذلك ، لأن شعارهم كان الحلق . وكان لتغلب على بكر بن وائل[6] .

وتجملت المرأة الجاهلية وتزينت على قدر حالها وامكانها ، لتظهر بذلك جمالها وأنوثتها على سنة الطبيعة ، وعلى عادة المرأة بل والانسان : رجلاً كان أو امرأة

---

١ تاج العروس (٦/ ٣٢٠) ، (حلق) .

٢ قد كنت أحسبني كبيا عنكم ان الغني عن المشط الأقرع
تاج العروس (٥/ ٢٢٣) ، (مشط) . اللسان (٧/ ٤٠٣) .

٣ تاج العروس (٥/ ٢٢٤) ، (مشط)

٤ بالكسر

٥ تاج العروس (٨/ ٤٥) ، (غسل)

٦ تاج العروس (٦/ ٣٢٠) ، (حلق) .

في كل وقت وزمان ، من حبّه في إظهار الزينة وحسن المظهر . جَمَّلت نفسها بالاعتناء بالنظافة وبالثياب وبالحلية ، كالخلخال والسوارين والخاتم والقُلبين والقلب والفتخة والمسكة والقرطين والقلائد الأخرى ، وبالتجميل بالكحل وبالمساحيق التي توضع على الوجه والدهن الذي يدهن به الشعر وخضاب الكف والقدم ، وبالوشم وما شاكل دلك من أمور تجميل وتحلية كانت معروفة في ذلك العهد .

ومن وسائل الزينة : الوشم . غرز إبرة ونحوها في عضو حتى يسيل الدم ثم يحشى بنؤور أو بالكحل أو بالنيلج أو نحوها فيزرق أثره أو يخضر [1] . وكانوا يقصدون بذلك التزين فينقشون به غالب أبدانهم ، أنواعاً من النقوش من صور حيوانات أو نبات أو صور انسان وكذلك الشفاه ، فترى غالب شفاه نسائهم زرقاً . والأطفال منهم يوشمون في بعض المحال من وجوههم لقصد الزينة . وكذلك الرجال . وذكر ان الرسول قد نهى عن ذلك في حديث : لعن الله الواشمة . أو لعن الله الواشمة والمستوشمة [2] .

وكانوا يعتنون بتجميل حواجبهم وازالة الشعر من وجوههم بـ (النماص) وهو (المنقاش) . وعرفت مزينة النساء بـ (النامصة) . وهي مزينة بالنمص . وذكر ان النمص نتف الشعر . وان المشط ينمص الشعر وكذلك المحسّة لأن لها أسناناً كأسنان المشط . ويقال ان النماص مختص بازالة الشعر من الحاجبين ليرققها أو ليسوّيها . وفي الحديث : لعنت النامصة والمتنمصة [3] .

وعنوا بالأسنان فاستعملوا المبرد لبرد ما بين الثنايا والرباعيات ، لتجميلها . وقد لعنت المتفلّجات في الحديث . والمتفلجات جمع متفلجة التي تفلج بين الأسنان [4] . وعنوا بتبيض الأسنان باستخدام (المسواك) ، وهو ما يدلك به الفم . ويكون من عيدان بعض الأشجار ذات الرائحة الطيبة . وقد أشير اليه في الحديث [5] .

١ تاج العروس (٩٤/٩) ، (وشم) .
٢ تاج العروس (٩٤/٩) ، (وشم) ، بلوغ الأرب (١٠/٣ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (٤٤٣/٤) ، (نمص) ، بلوغ الأرب (١١/٣) .
٤ بلوغ الأرب (١١/٣) .
٥ تاج العروس (١٤٦/٧) ، (سوك) .

ويقص الشعر والظفر بالمقص ، أي المقراض وهما مقصان [1] . يقص به الرجل شعره ، كما تقص بـه المرأة . وتتخذ المرأة (القُصة) في مقدم رأسها تقص ناصيتها ما عدا جبينها [2] .

وذكر ان من نساء الجاهلية من كنّ يقمحن لثّتهن بـ (النوور) ، حصاة كإثمد تدق فتسفهـا اللثة . وكن يتّسمن بـ (النؤر) . وهو دخان الشحم أو دخان الفتيلة ، يتخذ كحلاً أو وشماً ، وخصصه بعضهم بالوشم [3] .

ولم تنسَ المرأة الجاهلية زينتها ، فزينت نفسها بـ (الحليّ) من ذهب وفضة ومعادن أخرى ومن أحجار كريمة وأحجار تلفت النظر وبالعظام أيضاً وبالخرز . ومن الحـليّ (الأساور) المصنوعة من الذهب ، بالنسبة الى المرأة الموسرة ، والحليّ المطعمة باللؤلؤ . ومن الحليّ ؛ ما يزين به الرأس والعنق ، ومنه ما يزين به الأيدي أو الأرجل [4] . وسأتحدث عنهـا في القسم الخاص بالحرف ، بشيء من التفصيل .

و (الكرم) : القلادة . وقيـل هي القلادة من الذهب والفضة ، وقيـل تكون من لؤلؤ أيضاً [5] .

ويصفر شعر رأس الأطفـال ذوائب ، أي ضفائر تتدلى على رأسـه وعلى ناصيته . ومتى كبر الطفل وبلغ سنّ الرشـد ، أو شعر برجولته ، ضفرت له ذؤابتان ، وهي علامة الشباب والرجولة عندهم . وقـد كان الساميّون يحتفلون بحلق الذوائب ، لأن هذا الحلق معناه إنتهاء مرحلة من الحياة ودخول الطفل مرحلة الرجولة ، وهي مرحلة الحياة الصحيحة . وكانوا يرمون الذوائب أمام الأصنام . والعادة انهم يضفرون للأطفال سبع ضفائر . وهي عادة معروفة عنـد الجاهليين أيضاً ، ولا تزال متبعة عند الأعراب وأشباه الحضر . وقـد يعلقون حليّاً على

١ تاج العروس (٤/٤٢٢) ، (قصص)
٢ تاج العروس (٤٠/٤٢٣) ، (قصص) .
٣ تاج العروس (٣/٥٨٩) ، (نور) .
٥ تاج العروس (١٠/٩٧) ، (حلى) .
تاج العروس (٩/٤٢) ، (كرم) .

كل صغيرة ، وذلك إمعاناً منهم في تدليل الطفل وفي إراءة جماله . فالزينة وتعليق الحلي من مظاهر التدليل والتجميل .

نساء شهيرات :

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء نساء ذكروا أنهن عشن في الجاهلية . منهن : صحر بنت لقمان بن عاد . وكان أبوها لقمان وأخوها لقيم خرجا مغيرين ، فأصابا إبلاً كثيرة فسبق لقيم الى منزله ، وعمدت صحر الى بعض ما جاء بـه لقيم ، فصنعت منه طعاماً يكون معدّاً لأبيها لقمان إذا قدم ، وقد كان لقمان حسد لقيماً في تبريزه عليه ، فلما قدمت صحر اليه الطعام وعلم انه من غنيمة لقيم ، لطمها لطمة قضت عليهـا ، فصارت عقوبتها مثـلاً لكل من لا ذنب له ويعاقب[1] (فقيل : مالي دنب إلا ذنب صحر) ، ولم يكن لها ذنب[2] .

وقد حصلت (الزبّاء) على شهرة بين العرب ، ووضعوا حولها القصص . ذكروا انها امرأه من العماليق ، وأمها من الروم . وكانت تغزو بالجيوش ، وهي التي غزت ماردا والأبلق فاستعصيا عليها ، فقالت : تمرد مارد وعز الأبلق ، فذهبت مثلاً . ويروي أهل الأخبـار لها أمثلة أخرى[3] . ورموهـا بالغدر ، فقالوا : (قال عديّ بن زيد يذكر قصة جذيمة الأبرش لخطبة الزبّاء :

لخطبي التي غدرت وخانت وهنّ ذوات غائلة لحينا

أي لخطبـة زباء . وهي امرأة غدرت بجذيمة الأبرش حين خطبهـا فأجابته وخاست بالعهد فقتلته[4] .

واشتهرت (البسوس) بالبؤس والشؤم حتّى قالوا (شؤم البسوس) . وهي بنت منقذ التميمية ، زارت أختها أم جسّاس بن مُرّة ومع البسوس جار لهـا من جَرْم ، يقال له سعد بن شمس ، ومعه ناقة له ، فرماها كليب وائل لما رآها

١ الثعالبي ، ثمار القلوب (٣٠٧) .
٢ تاج العروس (٣/٣٢٧) ، (صحر) .
٣ الثعالبي ، ثمار القلوب (٣١١) .
٤ تاج العروس (١/٢٣٧) ، (حطب)

في مرعى قد حماه ، فأقبلت الناقة الى صاحبها وهي ترغو وضرعهـا يشخب لبناً ودماً ، فلما رأى ما بها انطلق الى البسوس فأخبرها بالقصة ، فقالت : واذلاّه ! واغربتاه ! وأنشأت تقول أبياتاً تُسمّيها العرب أبيات الفناء . فسمعها ابن اختها جسّاس فثار الدمُ في رأسه ، وخرج معقباً كليباً حتى وجده فطعنه طعنة قضت عليه . ووقعت الحرب بين بكر وتغلب ودامت أربعون سنة . وسار شؤم البسوس مثلاً ، ونسبت الحرب اليها لكونها سببها ، فقيل : حرب البسوس[1] . وهكذا فسر أهل الأخبار سبب وقوع حرب البسوس .

وقصّ أهل الأخبار قصة امرأة أخرى ، قالوا إن رغيف خبز لها صار سبباً في وقوع شرّ بين حيّين ، وأدى الى وقوع قتلى . حتى قيل : أشأم من رغيف الخولاء . والخولاء خبّازة في (بني سعد بن زيد مناة) ، فمرّت وعلى رأسها كارة خبز ، فتناول رجل عن رأسها رغيفاً ، فاشتكت الى رجل كان جاراً لها . فثار وثار معه قومه الى الرجل الذي أخذ الرغيف وقومه فقتل بينهم ألف نفس ، وسار رغيف الخولاء مثلاً في الشيء اليسير يجلب الخطب الكبير[2] .

وذكر أهل الأخبار اسم امرأة أخرى اشتهرت بعطرها ، حتى ضرب بـه المثل ، فقيل : (عطر منشم) . ولهم أقوال في سبب ضرب هـذا المثل . وخلاصتها ان (منشم) امرأة عطارة تبيع الطيب ، فكانوا إذا قصدوا حرباً غمسوا أيديهم في طيبها ، وتحالفوا عليه بأن يستميتوا في الحرب ولا يولوا أو يقتلوا ، فكانوا إذا دخلوا الحرب بطيب تلك المرأة يقول الناس : قد دقّوا بينهم عطر منشم ، فلما كثر هذا القول صار مثلاً . فمن تمثل به زهير حيث قال :

تداركتما عبساً وذبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم[3]

واختار أهل الأخبار من بين النساء امرأة جعلوها مثالاً للحمق ، حتى قالوا : (حمق دغه) . وهي دغة بنت منعج . روي لها حماقات كثيرة . وجعلوها مثلاً

١ الثعالبي ، ثمار القلوب (٣٠٧ وما بعدها) ، الميداني ، الأمثال (١/٣٧٢) .
٢ الثعالبي ، ثمار (٣١٠) .
٣ الثعالبي ، ثمار القلوب (٣٠٨ وما بعدها) ، ديوان زهير (١٥) ، ابن قتيبـة ، المعارف (٦١٣) .

سائراً بين الناس في الحمق [1] .

وضرب المثل بـ (أم خارجـة) في السرعـة ، فقال أسرع من نكاح أم خارجة . وهي (عمرة بت سعد بن عبد الله بن بجيلة) . كان يأتيها الخاطب فيقول : خطب ، فتقول : نكح . ولدت أم خارجة في نيف وعشرين حيّاً من آباء متفرقين ، وكانت إذا تزوج منها الرجل فأصبحت عنده كان أمرها اليها ، إن شاءت أقامت ، وإن شاءت ذهبت ، وكانت علامة ارتضائها للزوج ان تصنع له طعاماً كلما تصبح [2] .

وضربوا المثل بـ (عز أم قرفـة) ، فمن أمثالهـم إذا أرادوا العزّ والمنعة قالوا : انه لأمنع من أم قرفة . وهي بنت (مالك بن حذيفـة بن بدر) : وكان يحرس بيتها خمسون سيفاً بخمسين فارساً ، كلهم لها محرم [3] .

كما ضربوا المثل بـ (برد العجوز) . ولهم قصص في سبب ضربه . وهم متفقون على أن المثل جاهلي ، وليس بإسلامي . ذكر بعضهم ان عجوزاً دهرية كاهنة من العرب كانت تخبر قومها ببرد يقع في أواخـر الشتاء وأوائل الربيع ، فبسوء أثره عـلى المواشي ، فقالوا : هـذا برد العجوز ، يعني العجوز الذي أنذرت به . وذكر بعض آخر ؛ أن عجوزاً كانت بالجاهلية ولهـا ثمانية بنين فسألتهم ان يزوّجوها ، وألحت عليهم ، فتآمروا بينهم ، وقالوا لها : إن كنت تزعمين أنك شابـة فابرزي للهواء ثمان ليال ، فإننا نزوجك بعدهـا ، فوعدت بذلك ، وتعرضت تلك الليلة والزمان شتاء كلب ، وبرزت للهواء ، وبقيت تفعل ذلك سبع ليال ، ثم ماتت في الليلة السابعـة . فضرب بهـا المثل : وقيـل برد العجوز [4] .

أهل الحضر :

وما ذكرته يتناول حياة الاعراب ، وحياتهم الاجتماعية هي حياة أخرى تختلف

١ الثعالبي ، ثمار القلوب (٣٠٩)
٢ الثعالبي ، ثمار (٣١١ وما بعدها) .
٣ الثعالبي ، ثمار (٣١٠ وما بعدها) .
٤ الثعالبى ، ثمار (٣١٣ وما بعدها) .

عن حياة أهل الحاضرة . ففي حياة الحضر تجمع وتكتل . واذا تجمع الانسان وتكتل في موضع وكوّن جماعة ، ظهرت عنده خلال ، لا يمكن ظهورها عند الاعراب . تتسع وتكبر كلما بعدت الشقة بين البداوة والحضارة . لذا فان بين حياة أهل الحيرة أو يثرب أو مكة أو المستوطنات الحضرية الأخرى المنتشرة في جزيرة العرب وبين حياة أهل البادية فروقاً كبيرة ، تختلف في الدرجة والشدة ، بدرجة تكاثف السكّان في المستوطنة الحضرية ، وبدرجة قربها أو بعدها من الاعاجم ، وبدرجة اتصالها بالعالم الخارجي . فالمستوطنات التي تقع على سواحل البحر يكون لها اتصال خاص بالعالم الخـــارجي ، لا يمكن أن يتوفر لأهل البواطن ، ويؤدي هذا الاتصال الى التلاحم في الأفكار والى الاختلاط والامتزاج والى توسع أفق أهل الساحل بالنسبة الى من وراءهم في الباطن ، بسبب هذا الاختلاط في الموقع .

لقد تأثر أهل الحواضر من عرب العراق بأخلاق أهل النبط وغيرهم من أهل العراق ، حتى بان ذلك على لسانهم وعلى طراز معاشهم كما بان ذلك على عرب بلاد الشام لاختلاطهم بالروم وبأهل بلاد الشام . فعرفوا عنهم أكل الأعـــاجم وأحبوا غناء الفرس وغناء الروم . ودخل من دخل منهم في النصرانية . وقلّد ملوك الحيرة ملوك الفرس في بعض شؤون حياتهم ، وتشبه ملوك عرب الشام بملوك الروم ، حتى في أمور دينهم حيث اعتنقوا النصرانية ، وجاؤوا الى قصورهم بقيان يغنين بغناء الروم وبقيان يغنين بغناء الفرس . وزار سادات عرب العراق (المدائن) ، ووقفوا على حيـــاتها ؛ وعاش سادات عرب الشام بدمشق وبمـــدن بلاد الشام الأخرى ، وجلبوا الى قصورهم وبيوتهم شيئاً مما أعجبهم ونال حبهم . فصارت حياتهم من ثم حياة تختلف عن حياة الاعراب من هذه النواحي .

وكان لأهل قرى العربية الشرقية اتصال دائم بالعراق وبسواحل الهند الغربية ، وبايران وبالتجار الروم ، فأخذوا منهم وتأثروا بهم ، كالذي يظهر من الآثار التي عثر عليها ويعثر عليها المنقبون في مواضع العاديات . وتأثر أهل العربية الغربية بأهل بلاد الشام والعراق لما كان لهم من اتصال تجاري دائم بهم . ولما كانوا يجلبونه من هذه البلاد من رقيق . كما كان لهم ولأهل العربية الجنوبية اتصال بأهل افريقية ، سكان السواحل المقابلة لبلاد العرب ، فأثروا فيهم وتأثروا بهم . ومن آيات هذا التأثير الملامح الافريقية التي ظهرت في العربية الجنوبية بصورة خاصة ، لا سيما باستيلاء الأحباش مراراً على السواحل العربية المقابلة لافريقية ، وظهور جيل أخذ

من ملامح الجنسين ، نتيجة للازدواج الذي صار بين العرب والافريقيين .

ونجد أثر هذا الاختلاط في اللغة كما نجده في الغناء وفي آلات الطرب . اذ يختلف غناء أهل سواحل جزيرة العرب عن غناء القبائل الساكنة في الباطن ، بعيدة بعض البعد عن السواحـــل وعن التأثر بمؤثرات الأعاجم الذين يقصدون الموانى الساحلية للاتجار .

الزواج :

والزواج هو من أهم الافراح في حياة الانسان ، وهو ما زال وسيبقى من أهم الافراح في حياته ، لما له من علاقة سعيدة به . ولهذا يحتفل الناس به عادة ، بإقامة المـآدب فيه وبدعوة ذوي القرابة والاصدقاء اليها لمشاركة الزوجين أفراحهما .

وقد صنف (روبرتسن سمث) زواج العرب ثلاثة أصناف : زواج يكون في حدود القبيلة فلا يتعدّاه ، ولا يسمح لرجال القبيلة الا بالزواج من بنـــات القبيلة نفسها ، وهو ما يسمى بـ (Endogamous) ، وزواج يفرض فيه على الرجل أن يتزوج امرأته من قبيلة أخرى ، وهو ما يعرف بـ (Exogamous) أي (زواج خارجي) . وزواج يجمع الطريقتين المذكورتين ، أي الزواج في داخل القبيلة والزواج من خارجها [1] .

ويظهر من دراسة كل ما ورد في كتب أهل الاخبار وفي كتب التفسير والحديث عن الزواج والطلاق عند الجاهليين أن أهل الجاهلية لم يكونوا يسيرون على سنّة واحدة في عرف الزواج والطلاق ، ولكن كانوا يسيرون على أعراف مختلفة اختلفت باختلاف الأماكن وباختلاف الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية واتصالها بالخارج . وقد وردت الينا مسميّـــات بعض تلك الأنواع ، مثل (الخدن) و (المتعة) و (البدل) و (الشغار) و (البعولة) وزواج ذوات الرايات وغير ذلك مما ورد وصفه وشرحه ، ولكنه لم ينعت باسم معين .

وأنواع الزواج هذه ، ليست خاصةً بالجاهليين ، وانما هي معروفة عند غيرهم أيضاً ، ولا سيما عند الشعوب السامية ، وهي مراحل مرّ بها جميع البشر ، ولا

١ Kinship and Marriage, p., 60.

يزال الكثير منها قائماً في أنحاء متعددة من العالم . وهي في الغالب مرآة صافيـة للظروف التي يعيش فيها الناس . وبعض هذه الأنواع رناء معيب في عرفنا ، غير أننا يجب أن نفكر دائماً ان اولئك القوم كانت لهم مقاييس دينية وخلقية خاصة بهم ، وهي سليمة صحيحة بالقياس اليهم ، وأنهم عاشوا قبل الاسلام وفي ظروف تختلف عن ظروفنا ، وأن ما نسميه عيباً لم يكن عيباً بالقياس الى المراحل التي كانوا فيها والى عرف ذلك العهد .

ويقال للرجل العزب الذي لا زوج له (الخالي) ، قال امرؤ القيس :

ألَمْ ترني أُصبي ،على المرء عِرْسَهُ وأَمْنَعُ عِرْسي ان يُزَنَّ بها الخالي [1]

والرجولة عند العرب أثر بارز ، لما في طبيعة بلادهم من الحرّ وعدم وجود أمور مسلّية لديهم تصرف ذهنهم عن التفكير فيه وتلهيهم بعض الشيء عن الغريزة الجنسية . ونجد في الأدب العربي شيئاً كثيراً مما يتعلق بهذا الموضوع . وللغلمة المفرطة صار العربي مزواجاً ، يتشبب بالنساء ويتغزل ، والتشبيب من أمارات الرجولة عند الجاهليين .

ونجد في القصص المنسوب الى الجاهليين وفي شعرهم شيئاً كثيراً يتعلق بالحب : حب الرجل للمرأة ، وليس العكس ، ذلك لأن في طبع الرجل التباهي والتفاخر بحبه للنساء . أما المرأة فإن في طبعها الخجل الذي يمنعها من اظهار حبها وتعلقها برجل ما ، ثم ان المجتمع لا يسمح لها بذلك ، وهو يردعها عن أن تبوح بحبها لرجل ما ، ويعد ذلك نوعـاً من الخروج على الآداب العامة وجلب العار الى البنت والى الأسرة . ويعبر عن النسيب بالنساء ، أي بذكرهن في ابتداء القصائد ، بـ (التشبيب) . ويعد ابتداء القصيدة بالتشبيب من العرف الجاهلي ، ويقولون ان في ذلك ترقيقاً للشعر [2] .

والنسيب في الشعر ، التشبب بالمرأة والتغزل بها ، وذلك في أول القصيدة ، اذا ذكرها في شعره ووصفها بالجمال والصبا ، ووصف أعضاء جسمها وغير دلك . ثم يخرج الشاعر بعد ذلك الى المديح . ويدخل في النسيب ، ووصف مرابع الأحباب ومنازلهم واشتياق المحب الى لقائهم ووصالهم وغير ذلك [3] .

١ اللسان (١٤/٢٣٩) ، (خلا) ، تاج العروس (١٠/١١٨) ، (خلا)
٢ تاج العروس (١/٣٠٨) ، (شبب) .
٣ تاج العروس (١/١٨٣) ، (نسب) .

والغزل في نظر بعض العلماء كالتشبيب والنسيب ، كلها بمعنى واحد . وهو وصف الأعضاء الظاهرة من المحبوب ، أو ذكر أيام الوصل والهجر أو نحو ذلك . وفرق بعض آخر بينها ، بأن جعل التشبيب ذكر صفات المرأة وهو القسم الأول من النسيب ، فلا يطلق التشبيب على ذكر صفات الناسب ولا على عبره . والتغزل بمعنى النسيب دكر الغزل . فالغزل غير التغزل ، والنسيب والغزل في رأي بعض آخر هو الأفعال والأقوال والأحوال الجارية بين المحب والمحبوب نفسها . وأما التشبيب فهو الاشادة بذكر المحبوب وصفاته واشهار ذلك والتصريح به . وأما السيب فذكر حال الناسب والمنسوب به والأمور الجارية بينهما . وقال بعض : الغزل انما هو التصابي والاستهتار بمودّات النساء [1] . والى غير ذلك من آراء لا صلة لها بهذا الموضوع .

والعادة أن يتغزل الرجل بامرأة فيجعلها بطلة غزله . يلف ويدور في غزله حولها ويلج ويلهج بذكرها . وقد يذكر اسمها وقد لا يذكره . وهي قد تكون امرأة حقاً ، رآها الشاعر فأعجب بها ، وقد لا تكون امرأة معينة خاصة ، وانما امرأة تخيلها ذهن الشاعر ، فصار يتغزل بها ويلهج بذكرها ويلج في اظهار وصفها وصفاتها وما قالت له وما قال لها الى غير دلك . وسبب ذلك هو أذواق أهل دلك العهد ، وعادتهم في وجوب الابتداء بالقصيدة بهذا النوع من المقدمات ، حتى يكون شعراً رقيقاً مرموقاً ، وقد أدى تغزل بعض الشعراء بنساء رجال معروفين او ببناتهم الى وقوعهم في مهالك . ومن امثلة ذلك ما زعم من تغزل (النابغة الذبياني) بالمتجردة زوج الملك (النعمان بن المنذر) ، وما كان من غضب الملك عليه وتهديده له بالقتل ، مما اضطر النابعة الى الهَرَب الى الغساسنة اعداء النعمان ، ليسلم بريئه من سيد الحيرة وما ورد في قصة الشاعر (طرفة بن العبد) .

والطابع العام في هذا الغزل البراءة والعفة ونقاء الألفاظ المؤدّبة ، لا يتطرق فيه الشاعر الى ما وراء اظهار الوجد والحب والتلهف الى زيارة معشوقته له ، أو زيارته لها ، وذكر الايام الجميلة وأحلام الحب الصافية الخالصة النقية ، وقلّما نجد في الشعر الجاهلي اقذاعاً وفحشاً . فالشاعر متأدب في شعره ، يعرف حدوده في الغزل فلا يتجاوزها ، لأنه يعلم حقاً انه اذا ذكر الفحش في شعره وتعرض بامرأة معينة ، فأصابها بسوء قول ، فانها لن تسكت عنه ، واذا سكتت هي ، فلن يفلت من عقاب اسرتها وآلها له . وقد يكون ذلك العقاب القتل .

---

١ تاج العروس (٨/٤٣) ، (غزل) .

وقد ضرب العرب المثل ببعض الرجال في شدة النكاح وكثرته . ومن هؤلاء (حوثرة) رجل من بني عبد القيس ، ضربت به العرب المثل في ذلك فقالت (أنكح من حوثرة) [1] ، و (خوات بن جبير الأنصاري) ، وكان يأتي أحياء العرب يتطلب النساء ، فإذا سئل عن حاجته قال : قد شرد لي بعير فخرجت في طلبه . وأدرك الاسلام ، ورأى الرسول ، فقال له : ما فعل بعيرك الشرود ؟ فقال : أما مذ قيده الاسلام فلا [2] . وكان يحسن العناء . وكان اذا رأى النساء لبس حلته وجلس اليهن . وذُكر انه (صاحب ذات النحيين) [3] .

ويقال : (اغتلم الرجل) اذا هـاج من الشهوة ، وكذلك الجاريـة وفي الحديث : « خير النساء الغِلمةُ على روجها » . والغِلمة : شهوة الضراب ، (وفسره جماعـة بالشبق واشتهاء الغلمان) [4] . و (الشبق) شدة الغلمة وطلب النكاح ، يقال : رجل شبق ، وامرأة شبقة [5] . وقد ذكر أهل الأخبار أسماء رجال عرفوا بالشبق والغلمة ، ومن هؤلاء (ابن الغز) . فذكر ان عبد الملك ابن مروان ذكر إياداً ، فقال : « هـم أخطب الناس لمكان فس ، وأسخى النـاس لمكان كعب ، وأشعر الناس لمكان أبي دؤاد ، وأنكـح الناس لمكان ابن الغز » [6] .

وفي المثل : « أنكح من ابن الغز » ، وهو من بني إياد ، واسمه سعد أو عروة أو الحارث بن أشيم . وذكروا أنـه كان نكّاحاً عظيم الأير ، زعموا ان عروسه زفت اليه ، فأصاب رأس أيره جنبها ، ففالت : أتهددني بالركبة [7] .

وقد عرف من يحب محادثة النساء ومجالستهن ومخالطتهن بـ (الزير) [8] ، ومن هنا قيل : (زير نساء) . وقد ذكر أهل الأخبار أسماء نفر من المشهورين بذلك .

---

١ الثعالبي ، ثمار (١٤١) .
٢ الثعالبي ، ثمار (١٤١) .
٣ الاصابة (١/٤٥١ وما بعدها) ، (٢٢٩٨) ،
٤ اللسان (١٢/٤٣٩) ، (غلم) ، تاج العروس (٩/٤) ، (علم) .
٥ اللسان (١٠/١٧١) ، (شبق) ، تاج العروس (٦/٣٩٠) ، (شبق)
٦ الثعالبي ، ثمار (١٤٢) .
٧ تاج العروس (٤/٧٨) ، (لغز) .
٨ تاج العروس (٣/٣٤٧) ، (زير) .

ويقال لمن لا يأتي النساء عجزاً أو لا يريدهن (العنين) . كما يقال للمرأة التي لا تريد الرجال ولا تشتهيهم (العنينة) على بعض الآراء[1] . ويقال امرأة مساحقة . وامرأة سحاقة . لمن تشتهي النساء . ويقال انها لفظة مولدة[2] .

وقد عرف (التبتل) عند بعض الجاهليين ، ممن تأثر بآراء الرهبان . ويراد به ترك النكاح والزهد فيه ، ويكون ذلك للرجال كما يكون للنساء . وتعرف المرأة المقطعة عن الرجال بـ (البتول) . وقد نهى الرسول (عثمان بن مظعون) عن التبتل . وورد في الحديث : (لا رهبانية ولا تبتل في الاسلام)[3] . ويقال لمن لم يأت النساء ولم يتزوج (الصارور) . و (الصارورة) ، المتبتلة ، فلم تتزوج ولم تتصل برجل . ومن ذلك : (لا صرورة في الاسلام)[4] . و (الصرورة) عند الجاهليين أرفع الناس في مراتب العبادة ، وقد أطلقت على الراهب المتعبد ، كما جاء ذلك في شعر (ربيعة بن مقروم) الضبي ، من مخضرمي الجاهلية والاسلام :

لو أنها عرضت لاشمط راهب عبد الإله صرورة متبتل
لدنا لبهجتها وحسن حديثها ولهم من تاموره بتنزل[5]

وقد عيب العازف عن اللهو والنساء ، والذي لا يطرب للهو ويبعد عنه . ولا يقرب النساء ، ولا يحدثهن ولا يريدهن ولا يلهو . فإن مثل هذا الرجل هو كالحجر الصلد الجلمد ، وفيه غفلة . ويقال له (العزهاة)[6] .

عدد الزوجات :

ومن حق الرجل في الجاهلية ان يتزوج ما يشاء من النساء من غير تحديد ولا

١ تاج العروس (٩/٢٨١) ، (عن)
٢ تاج العروس (٦/٣٧٨) ، (سحق) .
٣ تاج العروس (٧/٢٢٠) ، (بتل) ، (رد النبي صلى الله عليه وسلم على عثمان ابن مطعون التبتل) ، الاصابة (٢/٤٥٧) ، (رقم ٥٤٥٥) .
٤ تاج العروس (٣/٣٣١) ، (صرر) .
٥ الحيوان (١/٣٤٧) ، (هارون) .
٦ اللسان (١٣/٥١٤ وما بعدها) ، (عره) .

حصر . إذْ لم تحدد شرائعهم للرجال عدد ما يتزوجونه من نسائهم . فلما جاء الاسلام ، حدد العدد وجوّز للرجل ان تكون له أربع زوجات في وقت واحد ، ومنعه من تجاوز العدد في حالة الجمع ، بمعنى انه لا يسمح له ان يجمع بين خمس زوجات أو أكثر من ذلك في وقت واحد بشرط العدالة بينهن ، فإن خاف الزوج ألا يعدل بينهن فواحدة .

ويذكر أهل الأخبار ان أهل الحرم أول من اتخذ الضرائر [1] ، والضرائر زوجات الرجل الواحد ، وكل منها ضرة للأخرى .

والغاية الأولى من الزواج هي النسل ، لذلك قالت العرب : من لا يلد لا وُلد [2] . وكرهت العاقر وعدّتها شؤماً . واتخذ العقر من الأسباب الشرعية للطلاق ، إذْ كان الرجل يأبى البقاء مع امرأة لا تلد . لذلك كان يطلقها في الغالب ، لانتفاء الفائدة منها مع انفاقه عليها ، أو يتزوج عليها ليكون له عقب ، وعندهم ان المرأة القبيحة الولود ، خير من الحسناء العاقر ، وان (سوداء ولوداً خير من حسناء عاقر) [3] . وليست هذه العادة من عادات العرب وحدهم ، ولكن يشاركهم فيها أكثر الشعوب الأخرى ، ومنها الشعوب السامية .

ولسادات القبائل والأشراف والملوك غرض آخر من الزواج ، هو غرض كسب الألفة واجتذاب البعداء ، والنصرة ، حتى يرجع المنافر موالياً ، ويصير العدوّ مؤالفاً ، فهو زواج (سياسي) . يتروج الملك أو سيد قبيلة ابنة سيّد قبيلة أخرى ، فيشدّ بزواجه هذا من أزر ملكه أو من قوة قبيلته . لا سيما اذا كانت البنت من قبيلة كبيرة . وقد عمل بهذا الزواج كثيراً في الجاهلية ، كما عمل به في الاسلام . فقد استفاد معاوية كثيراً من زواجه من قبيلة (كلب) ، إذْ ساعدته وأيدته . وروعي هذا الزواج في المواضع التي تغلبت عليها الحياة القبلية بصورة خاصة للتغلب على طباع البداوة ، القائمة على النفرة من الخضوع لحكم حاكم غريب عنها . وبهذا الزواج تخف هذه النفرة ، فتشعر القبيلة انها من أصهار هذا الحاكم ، وعليها واجب مساعدته بحكم عصبية المصاهرة .

---

١ اللسان (١٢/١٢١) ، (حرم) .
٢ بلوغ الأرب (٢/٩) .
٣ بلوغ الأرب (٢/١٠) .

وكثرة الاخوة عزة ، فمن كثرت اخوته استظهر بهم . فلا يتمكن أحد من النيل منه بسوء ، ولا من ابتزاز حق من حقوقه ، ولا من الاعتداء عليه[1] .

وحظ الرجل العقيم خير من حظ المرأة العاقر . فهو يتزوج عدة زوجات فإن لم يلدن منه ، آمن عندئذ بعقمه . أما المرأة ، فتبقى قانعة راضية في بيت الزوجية ، إن أراد زوجها ذلك ، لأن من الصعب عليها الحصول على زوج آخر إن طلقت ، إذْ كان الرجال يفضلون الأبكار على المطلقات ، واذا طلقت المرأة العاقر ، نقيب بين أهلها من غير زواج في الغالب .

ويرغب العرب في التزوج بالأبكار ، ويفضلون الأبكار الصغار على الأبكار الكبار ، والبكارة من الشروط التي يجب توافرها في الزواج ، واذا تبين ان البنت ليست بكراً ، عُدَّ ذلك نكبة[2] وعير أهلها بها ، ولذلك يكون مصيرها القتل تخلصاً من عارها . أما الزواج بالثيب ، فلا يشترط فيه البكارة لأن المرأة كانت قد تزوجت من قبل ، ثم طلقها زوجها أو مات عنها ، فهي مما لا يتوافر فيها شروط البكارة ، وهو زواج يعزف عنه الشباب ويعير به من يقدم عليه ، إذْ يتهم بالوهن الجنسي وبالطمع في مال الزوجة ، فليس يجمل بالشاب ان يتزوج امرأة أعطت بكارتها غيره . ومن صارت ثيباً من النساء ، صار نصيبها الثيب من الرجال في الغالب ، وان كانت لا تزال شابة صغيرة السن .

ويكره العرب الجمال البارع ، لما يحدث عنه من شدة الإدلال ، ومن الخوف من محنة الرغبة وبلوى المنازعة وشدة الصبوة وسوء عواقب الفتنة ، لكنهم كانوا يراعون حسن الصورة وجمال الجسم وتناسق أعضائه . ولهم صفات ونعوت ذكروا انها تمثل جمال المرأة ، تختلف باختلاف الأذواق[3] ، كما ان لهم رأياً في محاسن أخلاق المرأة وفي الخصال التي يجب ان تتحلى بها في معاشرة زوجها وفي العناية ببيتها وفي تربية أولادها[4] . من ذلك ان تكون حريصة على إرضاء زوجها وخدمة أولادها والعناية ببيتها .

---

١ الثعالبي ، ثمار (١٤٣) .
٢ تاج العروس (٣/٥٦ وما بعدها) ، (بكر) .
٣ بلوغ الأرب (٢/١٣ وما بعدها) .
٤ بلوغ الأرب (٢/١٤ وما بعدها) ، عيون الأخبار (٤/١ وما بعدها) .

وللعرب نعوت رأوا انها ان وجدت في المرأة عابتها ، منها ان تكون بذيئة اللسان ، نمامة كذوباً ، عابسة قطوباً ، كثيرة الانتباه والتدخل ، طويلة مهزولة ، ظاهرة العيوب ، سبابة وثوبة ان ائتمنها زوجها خانته ، وان لان لهـا أهانته ، وان أرضاها أغضبته ، وان أطاعها عصته ، الى غير ذلك من نعوت رووها عن الجاهليين في ذم المرأه المتخلقة بها [1] . وقد نعتت المرأة التي تلبس درعها مقلوباً ، وتكحل إحدى عينيها وتدع الأخرى بـ (القرثع) ، وهي المرأة الجريئة القليلة الحياء البذيئة الفاحشة [2] .

ويرغب العرب في الزواج بالنساء الشقراوات البيض البشرة ، ورد ان بعض العرب قالوا لبعض الملوك : هـل لكم في النساء الزهر ، والخيـل الشقر ، والنوق الحمر [3] .

والعادة ان أمر الزواج بيد الأبوين ، وليس للبنت معارضة وليّها الشرعي في الزواج ، غير ان بعض بنات الأسر الشريفة لم يكن يقبلن بالزواج بأحـد إلا بموافقتهن ، فإلى البنت يكون حق قبول الزوج أو رفضه [4] . كما اشترطت بعض النسوة أنهن ان أصبحن عند زوجهن ، كان أمرهن اليهن ، ان شئن أقمن معهم ، وان شئن تركنهم ، أي ان حق الطلاق بيدهن . وذلك لشرفهن وقدرهن . ومن هؤلاء (سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن خداش) ، وهي أم عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف ، و (فاطمة بنت الخرشب الأنماريـة) ، وهي أم الكَمَلة من بني عبس ، وهـم : الربيع الكامـل ، وعمارة الوهاب ، وقيس الحفاظ ، وأنس الفوارس ، بنو زياد [5] .

ومنهن (عاتكة بنت مرة بن هلال بن فالج بن ذكوان بن ثعلبة بن بهثة) ، وهي أم هاشم ، وعبـد شمس ، والمطلب بني عبـد مناف . و (السوا بنت

١ بلوغ الأرب (٢/٢٢ وما بعدها) .
٢ عيون الأخبار (٤/٣) .
٣ كتاب البغال من رسائل الجاحظ (٢/٣٤٢) .
٤ ابن سعد ، طبقات ج ١ قسم ١ ص ٤١) ، ابن هشام ، سيرة (١/١٤٨) ، القالي، أمالي (١/١٩٨) .
٥ المحبر (٣٩٨)

الأعيس) من عنزة ، وكانت تحت خالد بن جعفر بن كلاب [1] . و (مارية بنت الجعيد بن صنبرة بن الديل بن شن بن أفصى) من لكيز [2] .

وقد اشتهرت (أم خارجة) وهي — (عمرة بنت سعد بن عبد الله بن قداد ابن ثعلبة بن معاوية بن زيد بن الغوث بن انمار) من بجيلة — بأنها كانت قد اشترطت ان يكون طلاقها بيدها ، فكانت كما يقول أهل الأخبار تتزوج وتطلق . وقد أكثرت من الولد في العرب ، وبها ضرب المثل فقيل : « أسرع من نكاح أم خارجة » [3] . كان يقال لها : خِطبٌ ، فتقول : نكح وخارجة ابنها ، ولا يعلم ممن هو [4] . وولدت لـ (بكر بن عبد مناة) : الليث والدُّول ، وعُريجاً ، وهي أم العنبر ، والهجيم ، وأُسَيْد . وولدت أيضاً في (بني القين) من اليمن ، قوم يقال لهم : بنو الحرة ، وولدت في بهراء [5] . وللعداوات بين القبائل أثر بليغ في احتلاق أمثال هذا القصص ، كما لا يخفى .

وذكر أهل الأخبار أسماء نساء تزوجن ثلاثة أزواج فصاعداً . منهن (مارية بنت الجعيد) ، ذكر (ابن حبيب) انها تزوجت من عشرة رجال . ونسوة أخر ذكر أسماءهن (محمد بن حبيب) [6] .

تخفيف غلمة النساء :

وقد أمر بعض الجاهليين بختان النساء للحدّ من طغيان الشهوة ، فإن البظراء تجدُ من اللذة ما لا تجده المختونة ، وفي حديث : يا ابن مقطعة البظور . دعاه بذلك ، لأن أمه كانت تختن النساء . والعرب تطلق هذا اللفظ في معرض الذم ،

١ المحبر (٣٩٩) .
٢ المحبر (٣٩٨) .
٣ المحبر (٣٩٨) ، (وهي أم خارجة بنت قراد) ، الدينوري ، (المعارف) ، (ص ٦٠٩) .
٤ تاج العروس (٢/٢٩) ، (حرج) .
٥ الدينوري ، المعارف (٦٠٩ وما بعدها) .
٦ المحبر (٤٣٥) ، (أسماء من تزوج ثلاثة أزواج فصاعدا من النساء) .

وان لم تكن أم من يقال له هذا خاتنة[1] . وذكر ان الرسول قال لأم عطية الخاتنة : « أشمّيه ولا تنهكيه ، فإنه أسرى للوجه ، وأحظى عند البعل » . كأنه أراد انه ينقص من شهوتها بقدر ما يردها الى الاعتدال ، فإن شهوتها اذا قلّت ذهب التمتع ، ونقص حب الأزواج ، وحب الزوج قيد دون الفجور[2] .

وذكر ان العرب اتخذت بعض الطرق لتضييق فرج المرأة ، من ذلك استعمال عجم الزبيب . وذكروا ان نساء ثقيف فعلن ذلك ، ويظهر ان أعداء ثقيف في أيام الحجاج قد أشاعوا قصصاً من هذا النوع نكاية به . ويقال لذلك التفريب[3] والتفريم[4] .

حق التقدم في الزواج :

ويقدم ابن العم على غيره في الزواج ، فإذا جاء رجل يريد خطبة ابنة رجل ، سُئل ابن عمها ان كان لها ابن عم عن رأيه في ابنة عمه ، فإن أظهر رغبته في الاقتران بها قدّم على غيره ، وزوّجت منه ، وان أظهر انه غير راغب فيها زُوّجت من غيره . ذلك لأن ابن العم مقدم على كل أحد في الزواج من ابنة العم ، وقد يأبى ابن العم من تزويج ابنة عمه من غيره ويصر على ان تكون له ، ولكنه يأبى ان يحدد موعداً للزواج منها ، ويتركها أمداً طويلاً تنتظر حتى يرى رأيه ، وقد تأبى ابنة العم الزواج من ابن عمها ، ويأبى ابن عمها إلا الزواج منها ، فتنشأ من ذلك منازعات وخصومات قد تصل الى اراقة الدم .

١ تاج العروس (٣/٥٢) ، (بظر) ، وهو حديث مناقض لما عرف عن الرسول من عدم النطق بمثل هذا الهجر . وفي تاج العروس أحاديث ضعيفة أو موضوعة ذكرها من غير روية ولا تثبت .

٢ الثعالبي ، ثمار (١/٣٠٣) .

٣ (فرّت المرأة تفريما) ، (ضيقت فلهمها ، أي فرحها بالأدوية . وهي عجم الزبيب وما أشبه ذلك) ، تاج العروس (١/٤١٧) ، (فرّت) .

٤ الفرام . ككتاب ... دواء تضيق به المرأة قبلها . فهي فرماء ومستفرمة . وقد استفرمت ، اذا احتشت بحب الزبيب ونحوه) ، تاج العروس (٩/١١) ، (فرم) .

ومع وجود عرف ان القريب أولى بالبنت من البعيد ، فإن العرب تراعي في الغالب إنكاح البعـــداء والأجانب . يرون ان ذلك أنجب للولد وأبهى للخلقة ، وأحفظ لقوة النسل ؛ لأن إنكاح الأهل والأقارب يضر بالمولود ويسمه بالضعف والهزال ، ويزعمون ان تقارب الأنساب مدح في الإبل ، لأنـــه انما يكون في الكرائم يحمل بعضها على بعض حفظاً لنوعهـــا ، وذم للناس لأنه فيهم سبّب الضعف . وبهذا المعنى ورد الحديث : « اغتربوا ولا تضووا » أي ان تزوج القرائب يوقع الضوى في الولد ، والضوى : الضعف والهزال[1] . وقـــد أوصى (حصن بن حذيفة بن بدر) قومه ان (ينكحوا الكفء الدريب ، فإنـــه عز حادث »[2] . وقال (عمر) مخاطباً آل السائب : « يا بني السائب ، انكم قد أضويتم ، فانكحوا في النزائـــع » . أي تزوجوا في البعـــاد الأنساب ، لا في الأقارب ، لئلا تضوى أولادكم . والنزائع جمع نزيعة ، وهي المرأة التي تزوج في غير عشيرتها . وأضوى : ولد له ولد ضاو أي ضعيف[3] .

وروي ان رجلاً قال : بنات العم أصبر والغرائب أنجب ، وما ضرب رؤوس الأبطال كابن أعجمية[4] . وقد أدركوا أثر العرق في الولد . قال رجـــل : لا أتزوج امرأة حتى أنظر الى ولدي منها ، قيل له : كيف ذلك ؟ قال : أنظر الى أبيها وأمها ، فإنها تجر بأحدهما[5] . وقال بعض الشعراء :

إذا كنت تبغي أيّماً بجهـــالة من الناس فانظر من أبوها وخالها
فإنهما منها كما هي منهما كقدّك نعلاً ان أريد مثالها
فإن الذي ترجو من المال عندها سيأتي عليه شؤمهـــا وخبالها[6]

ويراعى التكافىء في الزواج ، فالأشراف لا يتزوجون إلا من طبقـــة مكافئة لهم ، والسواد لا يتجاسرون على خطبة ابنة سيد قبيلة أو ابنة أحـــد الوجهاء ، ويعير السيد الشريف ان تزوج بنتاً من سواد الناس ، ولا سيما اذا كانت ابنـــة

١ بلوغ الأرب (٢/١٠) .
٢ امالي المرتضى (١/٥٣١) .
٣ الدينوري ، عيون (٤/٣) .
٤ عيون الأخبار (٤/٣) .
٥ عيون الأخبار (٤/٣) .
٦ عيون الأخبار (ص ٦) .

صائغ أو نجار أو ابنة رجل يشتغل بحرفة من الحرف اليدوية لأنهـا من حرف العبيد . وقد عيّر (النعمان بن المنذر) بأمه ، لأنها كانت ابنة يهودي صائغ ، على ما يزعمه أهل الأخبار . ولم يكن من المستساغ عرفاً تزويج ابنـة رجل حرّ من عبد مملوك أو مفكوك الرقبة ، ولم يكن من الممكن تزويج البنت الأصيلة الحرّة من ابن عبد أو من حفيد عبد ، أو من حفيد حفيد عبـد ، وهكذا لأن سمة العبودية والضَّعَة تلازم الأسر ، وان تحررت وحسن حالها وصارت غنية ، وما زال هذا العرف قائماً في جزيرة العرب .

ويقدم العرب البيت على الجمال . فللبيت أثر في أخلاق المرأة وفي نجابة الأولاد ، وهو أثر دائم . والجمال صورة زائلة . فكانوا يهتمون بالبيت الطيب المنجب ، ليكون النسل نجيباً صحيح البنية والعقل [1] . لقد علمتهم الطبيعة ، وتبين من تجارب الحياة ان لبيت البنت أثراً كبيراً في مستقبل الأسرة وفي نجابـة الأولاد وصحة أجسامهم وسلامتهم من المرض . لذلك فضلوا أصالة البيت على جمال المرأة . لما للأصالة من أثر في الوراثة التي تنتقل من الأبوين الى الأولاد . ونجد هذا المسلك عند غير العرب من الساميين أيضاً ، ورد في التلمود : « لا تحمل بجمال المرأه . وانظر الى أسرتها » [2] . وروي ان رجلاً شاور حكيماً في التزوج ، فقال له : إفعل ، وإياك والجمال الفائق ، فإنه مرعى أنيق . فقال : مـا نهيتني إلا عمـا أطلب ، فقال : أما سمعت قول القائل :

ولن تصادفَ مرعىً مُمْرِعاً أبداً إلا وجدتَ به آثار منتجع [3]

وورد في الحديث : (إياكم وخضراءَ الدمن ، قيل : يا رسول الله ، وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء في منبت السوء » [4] . فللمنبت شأن كبير في الزواج وفي أخلاق الولد ، فلا قيمة للمرأة الحسناء اذا كانت من بيت سوء .

١ اذا تزوجت فكن حاذقا ... اسأل عن الغصن وعن منبته
وأول خبث الماء خبث ترابه وأول خبث القوم خبث المناكح
(لا تسترضعوا الحمقاء ولا العمشاء ، فان اللبن يعدي) ، المستطرف (٢١٨/٢) .

٢ Taan, IV, 8, Everyman's Talmud, p. 175.

٣ عيون الأخبار (٩/٤) .

٤ ثمار القلوب (٣٠٢/١ وما بعدها) .

المناكح الكريمة :

وقد روي عن (أكثم بن صيفي) قوله : « المناكح الكريمة مدارج الشرف »[1] . ولهذا حرصوا على تطبيق قاعدة التكافؤ في الزواج ، واختيار كرائم البنات لكرائم الرجال . وروي ان جملة ما أوصى به (الحارث بن كعب) سيّد مَذْحِج قومه ان « تزوجوا الأكفاء ، وليستعملن في طيبهن الماء ، وتجنبوا الحمقاء . فان ولدها الى أفنٍ ما يكون ، إلا انه لا راحة لقاطع القرابة »[2] . وقد عرفت هذه القاعدة بـ (الكفاءة في النكاح) . وهي ان يكون الزوج مساوياً للمرأة في حسبها ودينها ونسبها وبيتها وغير ذلك[3] .

والمرأة في نظر العرب وعاء للولد . هذه نظرتهم اليها في الجاهلية وفي الاسلام . قال (عروة بن الزبير) : « لعن الله فلانة ، ألفتُ بني فلان بيضاً طوالاً ، فقلبتهم سوداً قِصاراً » . وفي هذا المعنى جاء في الشعر :

وأول خبث الماء خبث ترابه وأول خبث القوم خبث المناكح[4]

وللأم أثر خطير في الولد . وقد ذكر (الجاحظ) ان العرب تقول : « عرق الخال لا ينام » . وان كثيراً من العلماء يزعمون ان عرق الخال أنزع من عرق العم . ومن دلائل ذلك تباهي الناس بأخوالهم ، واعتبار الخال بمنزلة الوالد . وقول العرب : « لئيم الخال » ، واحتماء الأولاد بأخوالهم ولجوئهم اليهم أكثر من لجوئهم الى أعمامهم[5] . ودعوتهم لهم عند العصبية . وقول العرب « العرق دساس » و « عرق الخال » .

ولكننا لا نستطيع القطع برأي العرب في موضوع (دس العرق) . وفي ان أيّاً هو أكثر أثراً ووضوحاً في الولد : عرق الخال ، أم عرق العم ؟ فهناك أمثلة في التأريخ الجاهلي تظهر ان من الجاهليين من كان يقدم العم على الخال ،

١ ثمار القلوب (٦٩١) .
٢ أمالي المرتضى (١/٢٣٣) .
٣ تاج العروس (١/١٠٨) ، (كفأ) .
٤ عيون الأخبار (٢/٤ وما بعدها) .
٥ الثعالبي ، ثمار (٣٤٣ وما بعدها) .

ويرى ان العم مقام الوالد . ولما كان الوالد هو الأصل في النسب عند الجاهليين ، وهو الولي وصاحب الحق الشرعي الأول في ولده ، يكون هذا الحق في إخوته بعد وفاته . كما أننا نجد ان بعض الأولاد كانوا ينزعون الى أعمامهم أكثر من نزوعهم الى أخوالهم . وموضوع نزع العرق عند العرب ، اعتباري اصطلاحي بالطبع ، يمثل وجهة نظرهم في النسب ، ولا يقوم على أسس (بيولوجية) أي من ناحية أثر الدم وانتقال الخصائص الدموية من الوالد ، او من الأم الى الولد . وهو موضوع علمي ، يختلف عن هذه النظرة الاعتبارية ، من حيث انه يقوم على الدراسات العلمية ، ولا يأخذ بالاعتبارات والآراء المبينة على اعتبارات أهل النسب في خصائص الولد .

والظاهر ان الوئام لم يكن واقعاً دائماً بين أبناء العم ، إذْ نجد ان الخصومات طالما كانت تحدث بينهم . ولعل ذلك بسبب ما ألقاه المجتمع على عاتق العم من تبعات أولاد إخوته حين وفاة الأخ ، فانه يكون بحسب العرف القبلي الوصي الشرعي على أولاد المتوفى ، وله حق في إرثه بحسب قانون (العصبة) عند وفاة الأخ عن بنات ومن غير أبناء ، أو لطمع الأعمام في أموال اليتامى ، الى غير ذلك من أمور سببت حدوث خصومات أحياناً بين الأعمام وبين أبناء الاخوة ، أو بين أبناء الأعمام . ولعل هذه الخصومات هي التي جعلت (الجاحظ) يتصور ان أبناء العم محسودون [1] .

ونجد العرب يقولون : « عرق فيه أعمامه وأخواله » [2] ، فقدموا الأعمام على الأخوال ، واعترفوا بأثر عرق الاثنين في الولد ، من كرمٍ أو لؤم ، إذْ يكون دس العرق في اللؤم والكرم [3] .

ولاحظ العرب ان الأبوين قد يلدان ولداً يكون لونه مغايراً للونهما ، فيحدث نزاعاً بين الرجل وزوجته في هذه الولادة الغريبة ، وتتهم المرأة أحياناً باتصالها برجل غريب جاء منه هذا المولود ، إلا ان منهم من أدرك (دس العرق) في هذه الولادة ، واحتمال انتقال هذا اللون من آباء أحد الوالدين . وقد اختصم رجل

---

١ كتاب فصل ما بين العداوه والحسد ، من رسائل الجاحظ (١/٣٤٤) .
٢ تاج العروس (٧/١٠) ، (عرق) .
٣ المصدر نفسه .

مع زوجته في مولود ولد له ، فجاء الى رسول الله وقال له : ان امرأتي قد ولدت غلاماً أسود ، فقال له الرسول : « لعل عرقا نزعه »[1] . فاعتقاد العرب ان الولد قد ينزعه عرق من الأب . وفي هذا المعنى أيضاً قول (ابن الزبير) : « لا يمنعكم من تزوّج امرأة قصرها ، فإن الطويلة تلد القصير ، والقصيرة تلد الطويل ، وإياكم والمذكّرة فانها لا تنجب »[2] . والمذكّرة المتشبهة بالذكور .

وقد حرص العرب لما تقدم على التزوج في الأسر الصحيحة السالمة من الأمراض والعيوب ، ليكون النسل صحيحاً نجيباً . قال أعرابي لصاحب له : (اذا تزوجت امرأة من العرب فانظر الى أخوالها ، وأعمامها ، واخوتها ، فانها لا تخطىء الشبه بواحد منهم)[3] .

لبن الأم :

وللبن الأم شأن كبير عند العرب ، لما يتركه من أثر في طبيعة الولد ، ولذلك كانوا يرون ان تكون الأم مرضعة الولد ، إلا اذا تعذر ذلك لسبب ، فترضعه مرضعة قريبة من أهل المولود او من المرضعات السليمات من المرض ، ومن ذوات العرق الطيب . لأن اللبن دساس يؤثر في شاربه .

واهتم العرب باختيار المرضعات . لما يكون للبان الرضاع من أثر في الرضيع ، ولما يكون للمرضعة وليبتها من أثر فيه ، كما اهتموا باختيار من يتأبط المولود ويحمله ، لتسليته وتلهيته ، لما يتركه ذلك من أثر في تربيته وخلقه . وفي حديث عمرو بن العاص : « ما تأبطني الإماء ولا حملتني البغايا في غبرات المآلي » أراد انه لم تتول الإماء تربيته . وغبرات المآلي : بقايا خِرَق الحيض[4] .

واذا أراد مدح انسان والثناء عليه ، ذكروا مرضعته وصفاء لبنه الذي رضعه ، فقالوا : « نعمت المرضعة » ، و « نعمت المرضعة مرضعته » . واذا أرادوا

١ الدميري ، حياة الحيوان (١/٤) .
٢ عيون الأخبار (٣/٤) .
٣ الحيوان (١٦٥/٣) ، (هارون) .
٤ تاج العروس (٤٣٦/٣) ، (غبر) .

ذمّ انسان قالوا : « بئست المرضعة مرضعته » ، كناية عن انها هي التي أرضعته ، فخرج رضيعها على شاكلتها . وفي الحديث حين ذكر الامارة ، فقال : « نعمت المرضعة وبئست الفاطمة » ، ضرب المرضعة مثلاً للامارة وما يوصله الى صاحبها من الأحلاب ، يعني المنافع ، والفاطمة مثلاً للموت الذي يهدم عليه لذاته ويقطع منافعها [1] .

وتعدّ الرضاعة بمنزلة الأخوة بين المتراضعين ، ويفتخر ويتعزز الواحد منهم بالآخر ، خاصة اذا كان من السادات والأشراف . والعرب تقول : « هذا رضيعك » أي أخوك من الرضاع [2] ، وتقول : « استرضع في بني فلان » [3] . ويصير كأنه واحد من القوم الذين استرضع فيهم . وتكون المراضع بمنزلة الأم للرضيع .

ويبدأ الزواج برغبة يبديها الرجل لوالديه ، او برغبة من والديه ، أو من أحدهما تقدم الى الولد تطلب اليه ان يتزوج ، فإن حصلت الموافقة اختيرت له زوجة ، وقد يكون الرجل قد اختار خطيبته وعينها ، فاذا وافق أهله خطبوها الى وليّ أمرها ، واذا أبوا فعليه ان يختار أخرى زوجاً له ، واذا أبى أهل البنت عليه ذلك تركها ، وقد يصر على الزواج بها ، ويصر أهله أو أهلها على رفضهم ذلك ، وقد يزداد الرجل أو البنت إصراراً على الاقتران معاً حتى يتحول ذلك الى هرب من مكانهما الى مكان آخر . وقد تقع بغضاء بين أهلي الرجل والبنت من وقوع هذا الزواج .

الخطبة :

واذا استقر الرأي على البنت ، يذهب ولي أمر الرجل او أقرب الناس اليه الى ولي أمر البنت ، كالأب أو الأخ أو العم أو بني عمها أو غيرهم ممن هم أقرب الناس اليها ، يخطب البنت بعد ان يكونوا قد مهدوا لذلك وحددوا الصداق .

---

١ تاج العروس (٥/٣٥٦) ، (رضع) .
٢ تاج العروس (٥/٣٥٦) ، (رضع) .
٣ المصدر نفسه (ص ٣٥٧) .

وكان الخاطب اذا دخل بيت أهل البنت حيّاهم ومن كان حاضراً بتحية أهـل الجاهلية ، مثل : انعموا صباحاً ، او عموا صباحاً ، او أمثال ذلك ، فاذا استقر به المقام ، تكلم فيما جـاء فيه ، كأن يقول : نحـن اكفاؤكم ونظراؤكم ، فإن زوجتمونا فقد أصبنا رغبة واصبتمونا وكنّا لصهركم حامدين ، وان رددتمونا لعلة نعرفهـا رجعنا عاذرين . ثم يجيب ولي أمر البنت جوابـاً مناسباً يضمنه الرضى والقبول ، وبذلك تكون البنت قد خطبت لذلك الرجل [1] .

ووصف بعض أهل الأخبار طريقة من طرق الخطبة عند بعض الجاهليين ، فقال : كان الرجل في الجاهلية يأتي الحي خاطباً ، فيقوم في ناديهم ، فيقول : خطب ، أي جئت خاطباً . فيقال له : بعد الموافقة نكح ، أي قد انكحناك إياها ، ومن دلك ما قدمت من خبر أم خارجة ان صحّ . وذكر ان (نكحاً) هي كلمة كانت العرب تتزوج بها [2] .

ويرتدي أهل الخاطب وأهل المخطوبة خير ما عندهم من ملابسهـم ويزينون أنفسهم عند مجيء أهل الرجل الى بيت البنت لخطبتها . واذا تمت الخطبة ضمخ والد الخطيبة بالعبير وخلّق بالطيب ونُحر بعير او أكثر على حسب منزلة أهـل البنت . والعادة عند العرب ان ينحروا بعيراً او شاة في المناسبات المفرحة المبهجة ، فلا بد لمثل هذه المناسبات من (ذبيحة) وإسالة دم . ولما خطب النبي (خديجة) واجابته ، استأذنت أباها في ان تتزوجه وهو ثمل ، فأذن لها في ذلك ، وقال : هو الفحل لا يقرع أنفه . فنحرت بعيراً ، وخلّقت أباها بالبعير ، وكسته برداً أحمـر [3] .

وكان الجاهليون يقولون للإبل تساق في الصداق : النوافج . وكانوا يقولون عند تقديمها : تهنئك النافجة . على ان بعضهم من كان يكره ذلك . وقد بطل هذا القول في الاسلام [4] .

١ بلوغ الأرب (٣/٢) .
٢ تاج العروس (٢٣٧/١) ، (خطب) ، (٢٤٣/٢) ، (نكح) ، المحبر (٣٩٨) .
٣ تاج العروس (١١٨/٣) ، (حبر) .
٤ قال الشاعـر :
وليس بلادي من ورابة والدى ولا شان مالي مستفاد النوافج
الصاحبي (ص ٩٢)

وتلبس العروس ثوباً يجعل له ذيل تسحبه حين تمشي . لأنه يكون طويلاً ، وقد أشير اليه في شعر لامرىء القيس . إذ قال :

لها ذنب مثل ذيل العروس تسد به فرجهـا من دبر

كما أشير اليه في شعر لخداش بن زهير . إذ قال :

لها ذنب مثل ذيل الهديّ الى جؤجؤٍ أيـدِ الزافر [1]

والهديّ : العروس التي تهدى الى زوجها .

واستعملت المرأة الغنية المسك والطيب في تطييب جسمها وثيابهـا . حتى كان المسك يفوح من أردانها . قال قيس بن الخطيم :

وعمرة من سروات النسا ء تنفحُ بالمسك أردانها [2]

و (الصِّداق) هو مهر المرأة ، أي ما يدفعه الرجل الى أهل البنت عنـد عقد الزواج ، ويقال له الصَّدَقة والصُّدُقة والصُّدُقة والصِّداق . وترادف هذه الكلمة كلمة أخرى هي « مهر » ، وهي من المصطلحات الجاهلية كذلك [3] .

وطريقة العرب من جاهليين وإسلاميين في دفع الرجل (المهر) للزوجـة ، تناقض المألوف عند اليونان والرومان ، حيث جرت عادتهم ان تقدم المرأة صداقها الى زوجها نقوداً أو عيناً . وهي الطريقة المألوفة عند الغربيين حتى الآن . وكان الرومان يستغربون طريقة الجاهليين هذه في دفع المهر [4] .

ويروي (روبرتسن سمث) ان ترادف معنى (الصداق) و (المهر) انما حدث في الاسلام . أما في الجاهلية ، فقد كان هناك فرق بين مدلول الكلمتين . فان المراد من كلمة الصداق عند الجاهليين هو ما يقدم الى العروس . أما المهر ، فهو ما يقدم الى الوالدين [5] .

١ أمالي المرتضى (٢/٩٤ وما بعدها) .
٢ اللسان (١٣/١٧٧) ، (ردن) .
٣ اللسان (١٢/٦٥) ، النهاية (٤/١٢٢) ، جامع الاصول (٧/٥٧٩) ، عمـدة القاري (٢٠/١٣٦) ، تاج العروس (٣/٥٥٠) ، (مهر) .
٤ Ency Religi , 8, p 447.
٥ Kinship, p. 76, Ency., III, p 137.

والرجل إما ان يكون من ذوي قرابة البنت وإما ان يكون من الأباعد ، أي غريباً عنها . فان كان من ذوي قرابتها ، قال لها ولي أمرها اذا حملت اليه : أيسرتِ وأذكرتِ ولا اشتِ ، جعـل الله منك عدداً وعزاً وخلداً . أحسني خلقك ، وأكرمي زوجك ، وليكن طيبك الماء ... ومثل ذلك من كلام . واذا زوّجت في غربة قال لها : لا أيسرتِ ، ولا ذكرتِ ، فانك تدنين البعداء ، أو تلدين الأعداء . أحسني خلقك ، وتحببي الى أحمائك ، فان لهم عيناً ناظرة اليك ، وأذناً سامعة اليك ، وليكن طيبك الماء[1] .

واذا كان العرس أولموا وليمة ، ودعوا اليها ذوي قرابة الزوجين وأصدقاءهم . وتتناسب الولائم مع مكانة العريس وأهله ، للهو ، فإن كان غنياً كانت وليمته ضخمة ، وربما دعوا اليها أهل الطرب ، وقدّموا فيها المأكولات الشهية والخمور . ويقال للوليمة التي تقـام « الملاك » ويقال « الإملاك » ، ويقال للطعام الذي يقدم في « الإملاك » « الشندخ » لأنه يقدم الدخول . واما ما يصنع للدخول بالمرأة ، فيقال له : « وليمة » و « وليمة العرس »[2] . وكانوا يعدون ولائم العرس من الأمور اللازمة ، ويفعل ذلك حتى القفير الضعيف الحال . وقد حث الاسلام عليها ، فورد في الحديث ان الرسول قال لعبد الرحمن بن عوف : « أولم ولو بشاة »[3] .

وتزف العروس الى زوجها ، ومعها أصدقاؤها وأهلها : وقـد يقترن ذلك بضرب الدفوف والغناء . وقد كان الأنصار يعجبهم اللهو ، ولهذا كانوا يهتبلون هذه المناسبات للهو فيها . ومما كان يقال في زف العروس :

أتينـاكم أتينـاكم فحيانـا وحيّـاكم
ولولا الذهب الأحمر ما حلت بواديـكم
ولولا الحنطة السمرا ما سمنت عذاريكم[4]

ويقال لليلة التي تزف فيها العروس الى زوجها ليلة الزفاف . ويعرف موكب

١ بلوغ الأرب (٣/٢) .
٢ بلوغ الأرب (٣٨٦/١) .
٣ البخلاء (٢٤٦) ، المخصص (١٢٠/٤) .
٤ ارشاد الساري (٦٧/٨) .

الزفاف وبـ (الزفة) ويزف (العروس) الى بيته أيضاً ، فقد كان من عادة ذوي القرابة والأصدقاء إقامة وليمة له ، اذا انتهت رافق المدعوون العريس الى بيته في موكب يغنى فيه ويضرب بالدفوف . وقد يبقى المدعوون الى الصباح ، حيث يحيون ليلتهم ، وهي ليلة العرس ، بالشرب والغناء واللعب .

وتخلّق العروس بالعبير وبأنواع الطيب بحسب سعة حالها وأحوال أهلها المعاشية . وذكر ان (العبير) الزعفران وحده عند أهل الجاهلية . وذكر انه أخلاط من الطيب يجمع بالزعفران ، ، وورد ان العبير غير الزعفران . وقد اشتهر رداء العروس بطيب رائحته ، لما فيه من العبير . قال الأعشى :

وتَبْرُدُ بَرْدَ رداءِ العروسِ في الصيف رقّتْ فيه العبيرا [1]

وتزف العروس الى زوجها ليلاً : تزف على قدر حال العروسين ، وقد تزف في النهار ، ويرافق العروس (موكب) موكب من نساء ورجال على الإبل المزينة يسير والنيران بين يديّ العروس . وقد توضع الأنماط على هودج العروس وفي بيتها . وقد منع استعمال النيران في الاسلام ؛ لما في ذلك من التشبه بالمشركين ، كما نهي عن استعمال أنماط الحرير [2] .

وقد تزف العروس في محفة يقال لها (المزفة) ، ومعها أصحاب (الزفة) . وذكر ان (الزفة) ، الزمرة . « ومنه الحديث : انه صلى الله عليه وسلم ، قال لبلال حين صنع طعاماً في تزويج فاطمة ، رضي الله عنها : « أدخل الناس عليّ زفةً زفةً » أي : فوجاً بعد فوج ؛ وطائفةً بعد طائفة [3] .

وفي المثل : « لا عطر بعد عروس » أول من قال ذلك امرأة اسمها : أسماء بنت عبد الله العُذْرية ، واسم زوجها — وكان من بني عمّها — (عروس) . ثم مات عنها ، فتزوجها رجل من قومها أعسر أبخر بخيل دَميم ، يقال له (نوفل) . فلما أراد ان يظعن بها ، قالت : لو أذنت لي ، رثيت ابن عمّي ، وبكيت عند رمسه ؟ فقال : إفعلي . فقالت : أبكيك يا عرس الأعراس ،

---

١ تاج العروس (٣/٣٧٧) ، (عبر) ، اللسان (٤/٥٣١) ، (عبر) .

٢ عمدة القارىء (٢٠/١٤٨ ، ١٥٨) .

٣ تاج العروس (٦/١٢٨ و ما بعدها) ، (زفف) .

يا ثعلباً في أهله ، وأسداً عند الباس ، مع أشياء ليس يعلمها الناس ! فقال : وما تلك الأشياء ؟ فقالت : كان من الهمة غير نَعّاس ، ويعمل السيف صبيحات الباس . ثم قالت : يا عروس الأغر الأزهر ، الطيب الخيم ، الكريم المحضر ، مع أشياء لا تذكر ! فقال : ومـا تلك الأشياء ؟ قالت : كان عيوفـاً للخنا والمكر ، طيب النهكة غير أبخر ، أيسر غير أعسر . فعرف الرجل انها تعرّض به . فلما رحل بها ، قال : ضمّي عطرك . وقد نظر الى قشوة عطرها مطروحة . فقالت : « لا عطر بعـد عروس » فذهبت مثلاً . أو « لا مخبأ لعطر بعـد عروس »[1] .

وتحمل العروس معها أدوات زينتها وموادها الأخرى تضعها في قشوة : قفة من خوص يجعل فيهـا مواضعها للقوارير بحواجز بينها لعطر المرأة وقطنهـا ، قال الشاعر :

لها قشوة فيهـا ملابٌ وزنبقٌ إذا عزبٌ أسرى اليها تطيبا[2]

ويقال للبنت العذراء التي لم تفتض (البكر)[3] . ويقال ذلك للرجل الذي ، لم يقرب امرأة بعد[4] . وزوجها الأول هو الذي يفتض بكارتها . وإذْ كانت لسلامة بكارة البنت مكانة عند العرب ، كانوا يعرضون دم البكارة على الأقارب ، ليكون شهادة على سلامة بكارتها . ويكنى عن البكارة والبنت البكر بـ (بنت سـعد)[5] .

والزواج حادث مهم في حياة الانسان ، ولذلك يعلن عنـه بفرح وسرور ، ويقال لذلك (بشاشة العرس)[6] . يعلن عنه بدعوة (وليمة) تولم لذوي القربى والأحباء والجيران والأصدقاء ، تقترن بالغناء وبالضرب على الدفوف أحيانـاً ، وبارتداء ملابس نظيفة مناسبة ، أو ملابس مصبوغة بصفرة ، والصفرة عند أهل

---

١ تاج العروس (٤/١٨٨) ، (عرس) .
٢ تاج العروس (١٠/٢٩٤) ، (فشا) .
٣ بالكسر .
٤ تاج العروس (٣/٥٧) ، (بكر) .
٥ تاج العروس (٢/٣٧٩) ، (سعد) .
٦ عمدة القارىء (٢٠/١٣٨ وما بعدها) .

الحجـــاز في ذلك العهد علامة العرس والفرح والسرور ، كما كانوا يصبغون أيديهم ولحاهم بالزعفران ، ويكحلون عيونهم ، والكحل عندهم من الزينة أيضاً[1] . ويقال للطعام يصنع لعرس : (الوليمة) . وقد ذهب بعض علماء اللغة الى ان اسم الوليمة مختص بطعام العرس . وقد حث الاسلام عليهـــا . ورد في الحديث قوله لعبد الرحمن بن عوف : أولم ولو بشاة[2] .

ويقابل الزوج على تفضله بالدعوة الى الوليمة بكلمات فيها خير وشكر وتمنيات للحياة الزوجية الجديدة ، ويقال له عند الانتهاء والانصراف : على الطائر الميمون ، وبالرفاه والبنين . وقد كره في الاســـلام القول : بالرفاه والبنين لأنه من أقوال الجاهلية ، ولما فيه من الاشارة الى بغض البنات ، لتخصيص البنين بالذكور[3] ، وإحياء سنن الجاهلية[4] .

المال والبنون :

واذا ولد مولود ذكر ، سُرّ أهله بميلاده . والعرب مثل غيرهم من الشعوب القديمة كانوا يفرحون بميلاد ولد ذكر ، ويغتمون اذا ولدت لهم أنثى ، ويقيمون وليمة لميلاده ، وكثرة البنين من المفاخر التي يفتخر بها أهل الجاهلية . ان كثرتهم نعمة وعزة . والبنون والمال زينة الحياة الدنيا . بالبنين يدافع الرجـــل عن نفسه وعن بيته ، وبهم ينال المال والحق والأخذ بالثأر ، فهم الحمايـــة ورأس المال . ونقرأ في أخبار أهل الأخبار افتخار الآباء والأمهات بكثرة ما أنجبوا من أولاد ، ولا سيما اذا كان الأولاد حازوا شهرة بالجود أو بالشجاعة أو بأمثال ذلك ، أو سادوا قومهم ورأسوهم . ورد في القرآن : (المال والبنون زينة الحياة الدنيا)[5] . صحيح ان اعالتهم مسألة صعبة عسيرة ، ولا سيما إعالة الفقراء أولادهم ، غير ان الحياة الاجتماعية في ذلك العهد لم تكن على مستوى عال من المعيشة تطلب مالاً

---

١ عمدة القارىء (٢٠/١٤٣ وما بعدها) ، (٢٢/٢٢) .
٢ تاج العروس (٩/٩٦) . (أولم) .
٣ عمدة القارىء (٢٠/١٤٥ وما بعدها) .
٤ اللسان (١/٨١) ، (رفا) ، تاج العروس (١/٧١) ، (رفا) .
٥ الكهف ، الآية ٤٦ .

يضمن الوالد به عيش أولاده ، انما كانت المعيشة سهلة لا تتطلب حاجات كثيرة ، ولم تكن بالناس حاجة شديدة الى النقود ، فما يقوم به المرء من مجهود بدني هو أصيلة[1] كل انسان ، وبه يعيش ، وبه يحصل على ما يحتاج اليه من وسائل معيشة محدودة . فاذا كثر الأولاد ، ازدادت وسائل المعيشة ، وعاش الوالد عيشة ناعمة طيبة ، وحصل بفضلهم على قوة ومنعة .

وقد ذكر أهل الأخبار عدداً من الرجال عرفوا ببنين حصلوا على شهرة وذكر ، فكانوا يفتخرون بهم بين الناس . من هؤلاء (سعد العشيرة) ، قيل له (سعد العشيرة) لأنه كان يركب في عشرة من أولاده الذكور ، فكأنه منهم في عشيرة ، فصار مثلاً للرجل يستكثر بأبنائه وعشيرته ويتعزز بهم[2] . و (الحارث بن سدوس) . وكان له واحد وعشرون ولداً ذكراً[3] .

ويكون الذكور فخراً للأمهات وقوة لهن ، ويقال للمرأة التي تلد الأولاد الكرماء الأشراف منجبة ومنجاب . (ولم تكن العرب تعد منجبة من لها أقل من ثلاثة بنين أشراف)[4] . وتعرف بـ (أم البنين) كذلك . ومنهن (أم البنين بنت عمرو بن عامر بن ربيعة بن عامر بن صعصعة) ، و (عمرو بن عامر) هو (فارس) . ولدت (أبا براء) ملاعب الأسنة ، و (طفيلاً) فارس قرزل و (ربيعة) ربيع المقترين ، و (معاوية) معوذ الحكماء ، (سلمى) نزال المضيق ، بني مالك بن جعفر بن كلاب[5] .

وقد أشار القرآن الكريم الى نفرة العرب من البنات ، وما كان يصاب به الرجل من ضيق صدر ومن همّ اذا بلّغ ان مولوده أنثى ، قال تعالى : (واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم)[6] . ويزداد كربه اذا زاد عدد بناته ، وقد يعمدون الى (الوأد) ، أي دفنهن أحياء للتخلص منهن .

١ الأصيلة : رأس المال .
٢ ثمار القلوب (١٠٤) .
٣ ثمار القلوب (١٤٢) .
٤ المحبر (ص ٤٥٥) ، تاج العروس (١/٤٧٧) ، (نجب) .
٥ المحبر (٤٥٨) ، تاج العروس (٣/٤٦٣) ، (عمر) .
٦ النحل ، الآية ٥٨ .

قيل : « إنهم كانوا يقتلونهن خوف العار »[1] . والى ذلك أشار القرآن الكريم : (ولا تقتلوا أولادكم خشية إمـلاق . نحنُ نرزقهم وإياكم)[2] ، (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقهم وإياكم)[3] .

وقد افتخرت (بنو عبس) بـ (زهير بن جذيمة بن رواحـة) العبسي ، لأنـه كان أبا عشرة ، وعم عشرة ، وأخا عشرة ، وخـال عشرة ، ورأس غطفان كلها في الجاهلية ولم يجمع على أحـد قبله[4] . فكثرة البنين من موجبات الفخر والاعتزاز والتباهي عند الجاهليين .

العقيقـة :

واذا كانت نهاية الانسان عند الجاهليين مقترنة بالدم ، فإن مبدأ حياته مقترن عندهم بالدم كذلك . لقد كان من عادتهم ذبح شاة عند ميلاد مولود وتلطيخ شيء من دمها برأس المولود ، ويقال لهـذه الذبيحة « العقيقة » ، وهي كلمة جاهلية وردت في الشعر الجاهـلي[5] . وتذبح عادة في اليوم السابـع من ميلاد المولود[6] . وقد أقر الاسلام ذلك ، فوردت الكلمة في الحديث . ويذكر علماء اللغة ان معنى العقيقة هو شعر كل مولود يخرج على رأسه في بطن أمه ، وانـه قيل للشاة المذبوحة لذبحها عند الاحتفال بحلق هذا الشعر . وقـد كانوا يعيرون من لم تحلق عقيقته ، إذ يرون في ذلك منقصة لا تليق بالرجل الكامل[7] .

ويستقبل المولود بدلك حنكه بالتمر الممضوغ ، أو الحلو مثل عسل النحل ،

١ المسطرف (٢/٧٧) .
٢ الآسراء الآية ٣١ .
٣ الانعام ، الآية ١٥١ .
٤ الاصابه (٣/٢٦٦ وما بعدها) ، (رقم ٧٣٥٢) .
٥ تاج العروس (٧/١٥) ، اللسان (١٢/١٢٩) .
٦ فهارس البخاري (ص ٣٣٣) .
٧ في شعر منسوب الى امرىء القيس :
يا هند لا تنكحي بوهة عليه عقيقته أحسبا
تاج العروس (٧/١٥) ، البخارى « كتاب العقيقة » حديث (١) ، عمدة القـارىء (٢١/٨٢) .

وكل مـــا لم تمسه نار من الحلو[1] . وكان العبرانيون يفركون المولود بالملـــح . واستقبال المواليد بمثل هذه الأمور من العادات الشائعة عند كثير من الأمم القديمة ، وهي عادات وشعائر دينية أيضاً . فإن الشعوب القديمة لم تكن تفرق كثيراً بـــين العادات والشعائر بخـــلاف الحال في الزمن الحاضر[2] . ولاستقبال المولود بذلك جسمه بالحلو أو بالملح أو بما شابـــه ذلك ، معنى التفاؤل . فالحلو رمز السعادة والفرح . واما الملح ، فانه عنصر مهم من عناصر الحياة عند الأمم القديمـــة . والخبز والملح هما رمز الصداقة والمودة حتى اليوم .

ويسلى الأطفال باعطائهم العرائس والتماثيل الصغيرة يلعبون بها ويقضون وقتهم بالتسلي بها وبمكالمتها على نحو ما يفعل أطفال اليوم . كما يتسلون باللعب معـــاً بألعاب خاصة بالصبيان .

الختـــان :

ويعدّ الختان من العادات الجاهلية القديمـــة ، والعرب في ذلك كالعبرانيين . وهو أمر لم يرد ذكره في القرآن الكريم ، انما ورد ذكره في الحديث . وترجع الكلمة الى أصل سامي شمالي قديم[3] . والختان في الأصل نوع من أنواع العبادة الدموية التي كان يقدمها الانسان الى أربابه ، وتعدّ أهـــم جزء من العبادات في الديانات القديمة[4] . فقطع جزء من البدن وإسالة الدم منـــه ، تضحية ذات شأن خطير في عرف أناس ذلك العهد ، كما كان حلق الشعر كله أو جزء منه نوعاً من أنواع التقرب الى الآلهة[5] . والختان في الاسلام معدود من سنن الفطرة التي ابتلى الله ابراهيم بها ؛ وهي الكلمات العشر . وفي جملتها الختان[6] .

وقد كان الجاهليون يسمون من لم يختتن : أقلف وأغلف وأغرل ، ويعيبونه ،

---

١ عمدة القارىء (٨٣/٢١) ، اللسان (٢٩٨/١٢) ، « حنك » .

٢ Reste, S., 173.

٣ Shorter Ency, p., 254, Ancient Israel pp, 46

٤ Reste, S, 174.

٥ Smith, p., 328.

٦ بلوغ الأرب (٢٨٧/٢) ، الحيوان (٢٧/٧) ، (هارون) .

ويعدّونه ناقصاً[1] . وذكر انتشار هذه العادة عند العرب بعض الكتبة « الكلاسيكيين » مثل : « يوسفوس » المؤرخ اليهودي و « أويسبيوس » و « سوزومينوس » (Sozomenius)[2] ويظهر انه كان معروفاً عند العرب الجنوبيين وعند الحبشة كذلك[3] . وقد طبق على النوعين الذكور والإناث . وكانت العرب تزعم ان الغلام اذا ولد في القمراء قسحت قلفته فصار كالمختون ؛ قال امرؤ القيس وقد كان دخل مع قيصر الحمام فرآه أقلف ، على ما يزعمه أهل الأخبار :

إني حلفت يميناً غير كاذبة لأنت أقلف إلا ما جنى القمر[4]

وذكر « يوسفوس » ان العرب يختنون أولادهم عند بلوغهم عشرة من سنهم[5] . ومن الضعف قبول خبره ، ويظهر من موارد أخرى ان الجاهليين لم يعينوا عمراً معيناً للاختتان[6] وأحسب ان هذا الكاتب اعتمد على ما جاء في التوراة عن اختتان اسماعيل وهو في الثالثة عشرة من عمره ، أو انه اعتمد على ما سمعه من بعض القبائل الاسماعيلية الساكنة في المناطق الشمالية الغربية من جزيرة العرب ، فظن ان الاختتان عند جميع العرب هو في هذه السن .

وقد ورد في بعض الأخبار ان الروم حاولوا منع العرب من الاختتان[7] .

والاختتان من المناسبات المفرحة المبهجة في حياة الأسرة ، لهذا كان من عادة العرب يدعون ذوي القرابة والأصدقاء الى الولائم ويلبسون الأطفال أحسن ما عندهم من لباس ابتهاجاً وفرحاً بذلك .

الرجولة :

واذا بلغ الطفل ، صار رجلاً ، وجاز له حينئذ ان يفعل فعل الرجال .

١ Reste, S., 174.
٢ Josephus, Anti., I, XII, 2, Eusep., VI, II, Sozomen, Hist. Eccl , VI, 38.
٣ Ency. Religl., 3, p 679.
٤ تاج العروس (٦/٢٢٦) ، (فلف) .
٥ Josephus, Antiq., XX, II, 4.
٦ Ency Religl., 3, P. 679.
٧ Ancient Israel, p 47.

واحتفل أهله بذلك عند الصنم (Oratal) ، الذي يقابل الإلـه (باخوس) (Bacchus) عند اليونان ، ويبلغ الاحتفال غايته عند قص الضفائر ورميها أمامه ، لأن ذلك معناه عندهم دخول الشاب في مرحلة الرجولة ، ودخوله في عبـادة هذا الإلـه [1] .

والبلوغ ادراك الغلام والجارية . وقد كان أهل مكة اذا بلغت عندهم الجارية أخذوها الى (دار الندوة) فدرعوها بها ، علامة على بلوغها .

ومن امثال العرب : (ولدك من دمّى عقبيك) [2] ، أي من نفست به ، وصبر عقبيك ملطخين بالدم ، فهو ابنك حقيقة ، لا من اخذته وتبنيّته وهو من غيرك [3] . والابن الشرعي ، من ينسب الى ابيه بنسب صحيح ، وعزي الى والده . ويقال : انه لحسن العزوة ، اي صحيح النسب حسنه [4] .

والعادة عند اكثر الساميين نسبة الاولاد الى الآباء . ونجد اكثر اسماء الجاهليين على هذا النحو . وهناك اشخاص عرفوا بأسماء امهاتهم ، وللاخباريين في تفسيرهـا آراء ، الغالب انهم اشتهروا بأمهاتهم لما كان لأمهاتهم من كفايات وصفات خاصة جعلت لهن صيتاً بعيداً طغى على اسم الرجال ، فنسب أبناؤهم اليهن لهذا السبب تمييزاً عن بقية الابناء الذين قد يكونون للرجل من زوجة اخرى . ومن هذا القبيل اشتهار (عمرو) ملك الحيرة بـ (عمرو بن هند) . واشتهار (المنذر) ، وهو احد الملوك بـ (المنذر بن ماء السماء) على رأي من جعل (ماء السماء) اسم والدة الملك .

ولم يكن للجاهليين قواعد ثابتة معينة في تسمية المواليد ، ففي بعض الروايات ان الاجداد او الآباء هم الذين كانوا يقومون بتسمية المولود ، وفي روايات اخرى ما يفيد قيام المرأة بهذه المهمة . والذي يتبين من غربلة الروايات ان الرجال هم يسمّون الاولاد ، فيضعون لهم الاسماء . اما تسمية البنات فكانت في الغالب من اختصاص النساء . وقد يثبت اسم المولود ويحدد في اليوم السابع من مولده ، اي

---

١ Hastings, I, p. 283, Herodotus, III, 8.

٢ محركة وكسر الكاف فيهما بناء على أنه خطاب للانثى .

٣ تاج العروس (٢/٥٤٠) ، (ولد) .

٤ تاج العروس (١٠/٢٤١) ، (عزا) .

في يوم (العقيقـــة) . وتذكر كتب السير ان (عبد المطلب) هو الذي سمى الرسول محمداً ، في يوم سابعه ، اخذه فدخل به الكعبة ، ثم خرج به الى أمه فدفعه اليهـــا ، وفي هذا اليوم عقّ له على عادة العرب في ذلك العهد . وتذكر ايضاً ان قريشاً « قالوا لعبد المطلب ما سميت ابنك هذا ؟ قال سمّيته محمداً » [1]

وتختلف التسميات في جزيرة العرب ، كما تختلف معانيها ، فالأسماء المشهورة عند العرب الجنوبيين والواردة في نصوص المسند لا ترد في قوائم اسماء الجاهليين الذين كانوا يعيشون قبيـــل الاسلام في نجد والحجاز . وأسماء اكثر ملوك العرب الجنوبيين ولا سيما الذين عاشوا منهم قبل الاسلام هي اسماء مركبة ، ولها صلة بالآلهة . اما اسماء الملوك الشماليين فأكثرها مفردة مثل المنذر والنعمان والحارث وعمرو وأمثال ذلك . والأسماء الشمالية المركبة لها صلة بالأصنام ، ولكن بأصنام العرب الشماليين ، مثل عبد مناة ، وعبد العزى ، وامرىء القيس ، وعبد ودّ . وأما اسماء سواد الناس ، فتختلف كذلك في العربية الجنوبية عنها في الشمال ، وفي المواضع الاخرى من جزيرة العرب . وقد احدث الاسلام تغييراً كبيراً في الاسماء ، فاجتث منها كلّ ما له صلة بالوثنيـــة وبالأوثان ، وجاء بتسميات لم تكن شائعة بين الجاهليين ، مثل : محمد وعلي وأمثال ذلك من اسماء لها صلة بالرسول وبالصحابة وبتأريخ الاسلام .

ما كان العرب يسمّون به اولادهم :

وقد بحث (الجاحظ) في علل التسميات عند العرب وفي اسبابها ، فقال : (والعرب انما كانت تسمّى بكلب ، وحمار ، وحجر ، وجعل ، وحنظلة ، وقرد ، على التفاؤل بذلك . وكان الرجل اذا ولد له ذكر خرج يتعرض لزجر الطير والفأل ، فان سمع انساناً يقول حجراً ، او رأى حجراً ، سمّى ابنـــه به وتفاءل فيه الشدة والصلابه والبقاء والصبر ، وأنه يحطم ما بقي . وكذلك ان سمع انساناً يقول ذئباً او رأى ذئباً ، تأول فيه الفطنة والخبّ والمكر والكسب . وان

١ الاشتقاق (٦) ، المواهب (٢٤١) ، الحلبيه (١/٩٤ وما بعدها) ، الروض الانـف (١/١٠٦ وما بعدها) ، ابن هشام ، سيره (١/١٦٦ وما بعدها) ، تأريخ الاسلام ، للذهبي (٧/٢٣ وما بعدها) ، تفسير روح المعاني (٤/٧٣) .

كان حماراً تأول فيه طول العمر والوقاحة والقوة والجلَد. وان كان كلباً تأول فيه الحِراسة واليقظة وبُعد الصوت والكسب وغير ذلك) . وجاء بآراء آخرين على هذه التسميّات وعلى آرائهم فيها [1] .

وتعرض (الجاحظ) الى اسماء الحيوان التي تَسمّى بها الناس . فذكر منها : غراب ، وصُرد ، وفاختة ، وحمامة ، ويمام ، ويمامة ، وعقاب ، وقطامي ، وحجل ، وصقر ، وصفير ، وطاووس ، وطويس ، وحيقطان ، والغرانيق ، والغرنوق [2] .

المعمرون :

وقد عمر بعض اهل الجاهلية عمراً طويلاً ، فعُدّوا من المعمّرين في الجاهلية . وروى اهل الاخبار اخبارهم وألف بعضهم كتباً فيهم . فلأبي حاتم السجستاني مؤلف في المعمرين [3] . والعادة عند العرب ان المرء اذا شاخ وكبر بالغوا في تقدير عمره ، وزادوا في سني حياته . حتى جعلوا المعمر من عاش فوق المئة عام . ولا يعد المعمر معمراً عندهم الا اذا عاش مائة وعشرين سنة وصاعداً [4] . ولهذا ، فلا نستغرب ما يرويه اهل الاخبار عن بعضهم من انهم عاشوا فوق المئة بكثير .

ومن المعمرين : الحارث بن كعب بن عمرو بن وعلة بن خالد المذحجي . يزعمون انه عاش مائة وستين سنة . ورووا له وصية في الاخلاق والآداب والمواعظ والحكم . بيّن فيها انه على دين شعيب النبي ، وما عليه احد من العرب غيره ، وغير أسد بن خزيمة ، وتميم بن مُرّة . وأنه لم يصافح غادراً ، ولم يتخلق بأخلاق فاجر ، ولا صبى بابنة عَمّ له ولا كنة . ولا جاءته مومسة . وأوصى اولاده بالتجمع ، وبالموت في سبيل العز ، وبالحذر من الناس ، وبتزوّج الاكفاء وبتجنب الزواج من المرأة الحمقاء ، لانتقال الحمق منهن الى من يلدن . وأوصى بوصل

---

١ الحيوان (١/٣٢٥ وما بعدها) ، (هارون) .
٢ الحيوان (٧/٥٣ وما بعدها) ، (هارون) .
٣ أخبار المعمرين .
٤ أمالي المرتضى (١/٣٣٦) .

الرحم ، وبلزوم اطاعة الوالدين ، ونبذ الحقد والضغينة [1] .

ومنهم : المستوغر : وهو عمرو بن ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة . ذكروا انه عاش ثلاثمائة وعشرين ، وأدرك الاسلام او كاد يدرك اوله . ونسبوا له شعراً وحِكَماً [2] .

وحشروا في المعمَّرين : (دويد بن زيد) من قضاعة . ذكروا انه عاش اربعمائة سنة وستاً وخمسين سنة ونسبوا له وصية فيها : (اوصيكم بالناس شراً ، لا ترحموا لهم عبرة ، ولا تقيلوا لهم عثرة) الى آخر ذلك من وصية فيها شدة على الناس وحث لأهله على عدم الرحمة بهم ، وألا يرحموا احداً ، والا يهنوا [3] . وهي تمثل وضعاً خاصاً ورأياً لواضع هذه الوصية ولراويها من اناس زمانه ، فيها سوء ظن ، ووجوب الحذر والاعتماد على النفس ، حيث لا ينفع الانسان في حياته الا نفسه .

ومن المعمرين زهير بن جناب . عاش مائتي سنة وعشرين سنة . وأوفع مائتي وقعة ، وكان سيّداً مطاعاً شريفاً في قومه . فيه عشر خصال لم يجتمعن في غيره من اهل زمانه ، كان سيد قومه ، وشريفهم ، وخطيبهم ، وشاعرهم ، ووافدهم الى الملوك ، وطبيبهم ، وحازي قومه ، وكان فارس قومه وله البيت فيهم . وقد نسبوا له وصية ، على عادتهم في نسبتهم الوصايا الى المعمرين . ذكروا انه اوصى بنيه فيها بوجوب التجمع ومقاومة النوائب وترك التخادل والاتكال ، وبعدم الغرور في هذه الدنيا ، فانما الانسان في هذه الدنيا عَرَضٌ تعاورُه الرماة فمقصِّر دونه ، ومجاوز موضعه ، وواقع عن يمينه وشماله ، ثم لا بد انه مصيبه . ورووا له شعراً وحكماً .

وُذكر انه كان على عهد (كليب وائل) ، ولم يكن في العرب انطق من زهير ولا أوجه منه عند الملوك ، وكان لسداد رأيه يسمى كاهناً ، ولم تجمع قضاعة لا عليه وعلى رزاح بن ربيعة [4] .

واختلف في عمر (ذو الأصبع العدواني) يوم مات . فذكر بعضهم انه

١ أمالي المرتضى (١/٢٣٢ وما بعدها) .
٢ أمالي المرتضى (١/٣٣٤ وما بعدها) .
٣ أمالي المرتضى (١/٢٣٦ وما بعدها) .
٤ أمالي المرتضى (١/٢٤٠ وما بعدها) .

عاش مائة وسبعين سنة . واستقل (أبو حاتم السجستاني) هذا المقدار ، فجعله ثلاثمائة سنة . وهو من (عدوان) . وأحد حكّام العرب في الجاهلية . ونسبوا له على عادتهم بالنسبة للمعمرين حكماً وشعراً [1] .

ومن المعمرين الذين دكرهم أهل الأخبار (معد يكرب الحميري) ، من آل ذي رعين ، و (الربيع بن ضبع الفَزاري) . ذكر انه عاش أكثر من مائتي سنة . وانه لما بلغ مائتين وأربعين سنة قال شعراً في ذلك . وقد عاش في الاسلام أيضاً وأدرك أيام معاوية [2] .

وجعلوا عمر (أبو الطحان القيني) مائتي سنة ونسبوا له حكماً وشعراً [3] . وأبى (الكلبيُّ) ان يجعل عمر (عبد المسيح بن بقيلة الغساني) ، وهو عبد المسيح بن عمرو بن قيس بن حيّان بن بقيلة ، أقل من ثلاثمائة وخمسين سنة . وجاراه في ذلك (أبو مخنف) وآخرون . وذكروا انه عاش في الجاهلية وأدرك الاسلام فلم يسلم ، ومات نصرانياً . وذكروا ان (خالد بن الوليد) لما نزل على الحيرة ، وتحصن منه أهلها أرسلوا اليه (عبد المسيح بن بقيلة) ليكلمه فسأله خالد أسئلة عديدة . منها : أعرب أنتم أم نبط ؟ قال عبد المسيح : عرب استنبطنا ونبيط استعربنا . ثم سأله : كم أتى لك ؟ قال : ستون وثلاثمائة سنة . ثم عاد الى قومه فنصحهم بمصالحة خالد . ورووا له شعراً في دخول المسلمين الحيرة ، وكيف صار أمر (آل المنذر) ، وقد تحسر فيه على الأيام الماضية ، التي ولت حتى آل الأمر بهم ان يؤدوا الخراج الى (معدّ) التي اقتسمتهم علانية كأقسام الجزور ، يؤدون لهم الخراج ، بعد خراج كسرى وخراج من قريظة والنضير . ثم خلص الى ان الدهر هو كذلك لا يدوم على حال . فيوم من مساءة ويوم من سرور [4] .

وذكر ان بعض سادات أهل الحيرة خرج الى ظاهرها يختطُّ داراً ، فلما احتفر

---

١ أمالي المرتضى (١/٢٤٤ وما بعدها) ، الأغاني (٣/٩٤ وما بعدها) ، الكامل ، للمبرد (٥/٩٤ وما بعدها) .
٢ أمالي المرتضى (١/٢٥٣ وما بعدها) .
٣ أمالي المرتضى (١/٢٥٧ وما بعدها) .
٤ أمالي المرتضى (١/٢٦١ وما بعدها) .

موضع الأساس ، وأمعن في الاحتفار أصاب كهيئة البيت ، فدخله فإذا رجل على سرير من رخام ، وعند رأسه كتابة : أنا عبد المسيح بن بقيلة .

حلبت الدهر أشطره حياتي ونلت من المنى بُلَغَ المزيد
وكافحت الأمور وكافحتني فلم أحفل بمعضلة كئود
وكدت أنال في الشرف الثريا ولكن لا سبيل الى الخلود [1]

وأدخلوا (النابغة الجعدي) ، واسمه (قيس بن عبد الله بن عدس) في المعمَّرين . ولكنه لم ينل من أهل الأخبار عمراً يستحق الذكر . إذْ منحوه أقصر ما يمكن من العمر بالنسبة للمعمرين . وهو عشرون ومائة سنة . وبفضل (أبو حاتم السجستاني) عليه فمنحه مائتي سنة [2] . وأبو حاتم من الكرماء جداً بالنسبة لمنح الأعمار الى المعمرين . وقد أدرك الاسلام فأسلم . ومدح الاسلام بشعر . ويذكر انه جاء الرسول وأنشده من شعره [3] .

وذكر (الجاحظ) نقلاً عن المتقدمين عليه ، انهم (ذكروا انهم وجدوا أطول أعمار الناس في ثلاثة مواضع : أولها سرو حمير ، ثم فرغانة ، ثم اليمامة ، وان في الأعراب لأعماراً أطول ، على ان لهم في ذلك كذباً كثيراً) [4] .

أصحاب العاهات :

والعمى من العاهات المعروفة بين الجاهليين . منهم من ولد أعمى ، أو أصيب بالعمى في طفولته ، ومنهم من أصابه وهو على كبر . وذكروا ان من أشراف العميان (زهرة بن كلاب) و (عبد المطلب بن هاشم) و (العبّاس بن عبد المطلب) ، وغيرهم .

و (العَوَرُ) من العاهات التي كان الجاهليون يعيبون من أصيب به . وكانوا

---

١ أمالي المرتضى (١/٢٦٣) .
٢ أمالي المرتضى (١/٢٦٣ وما بعدها) ، جمهرة اشعار العرب (٣٠١ وما بعدها) .
٣ أمالي المرتضى (١/٢٦٥ وما بعدها) ، أخبار المعمرين (٦٤ وما بعدها) ، ابن قتيبة ، الشعر والشعراء (٢٤٧ وما بعدها) ، الاصابة (٦/٢١٨ وما بعدها) ، الاغاني (٤/١٢٧ وما بعدها) .
٤ الحيوان (١/١٥٧) ، (أطول الناس أعمارا) ، (عبد السلام محمد هارون) .

يرمون العوران باللؤم والخبث . وقد أصيب بـه بعضهم في الحروب . (كأبو سفيان) فقد أصيب يومَ الطائف بالعَوَر ، وأصيب غيره في معارك أخرى [1] .

وأصيب بعض الناس بالبرص . وقـد ذكر (السكري) أسماء جماعـة من (البرص الأشراف) [2] ، ومن هؤلاء : (جذيمة الأبرش) ، الملقب بـ (الوضّاح) ، وذكر ان (الوضح) كناية عن (البرص) [3] ، وكانت قريش تخاف البرص خشية العدوى . فأخرجت (أبا عزة عمرو بن عبـد الله بن عمير بن وهب) عنها ، مخافة العدوى . فكان يكون بالليل في شُعَف الجبال ، وبالنهار يستظل في الشجر ، وسُقيَ بطنه ، فأخذ مدية فوجأ بها في معدته . فسال ذلك الماء ، فبرأ برصه ، ورجع الى مكة [4] .

ومن العاهات (الفقم) ، وهو تقدم الثنايا العليا ، فلا تقع على السفلى ، اذا ضم الرجل فاه . ثم كثر حتى صار كل معوج أفقـم [5] و (العرج) ، ومن أشهر (العرجان الأشراف) (الحارث بن أبـي شمر الغساني) ، و (عبد الله ابن جُدعان) ، و (الحوفزان بن شريك الشيباني) ، و (النابغة الذبياني) ، وغيرهم [6] .

ومن المعيبات في الانسان ، ألا يكون للرجل شعر في وجهه . ويقال لمن عرى وجهه من الشعر (الكوسج) . وذكر انه الذي عرى وجهه من الشعر إلا طاقات في أسـفل حنكه ، كالأثط والثط . والثط هو القليل شعر اللحية والحاجبين . ويقال : رجـل ثَطّ ، وامرأة ثطة الحاجبين [7] . ومن الثُّط (الحارث بن أبـي شمر الغساني) ، و (المنذر بن النعمان بن ماء السماء اللخمي) ، و (عبد الله ابن جُدعان) و (قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري) [8] .

---

١ المحبر (٣٠٢) ، (العوران الأشراف) .
٢ المحبر (٢٩٩) .
٣ تاج العروس (٢٤٧/٢) ، (وضح) .
٤ المحبر (٣٠١) .
٥ المحبر (٣٠٤) تاج العروس (١٤٧/٩) .
٦ المحبر (٣٠٤) .
٧ تاج العروس (٩١/٢) .
٨ المحبر (٣٠٥)

حياة الشبان :

ومن الشبان من كان يقضي وقته بالشراب ، وبمصاحبه القيان ، وهم أولاد اليسار والمجّان . وكان منهم من يأوي الى منزل أحدهم فيعكفون على اللهو والشُّرب ، لا يعبأون ولا يكترثون [1] ومنهم شباب مكة قبل الاسلام . وكان منهم قوم مستهترون لم يبالوا بحرمة ولا بأحد ، حتى ان شباباً من شباب مكة سرق من خزانة الكعبة لينفق مما سرقه على شربه وقيانه . وقد عرف هؤلاء بـ (الفتيان) . وكانوا يقضون أوقاتهم بالشرب وبلبس الملابس النظيفة ، وبالسماع الى القيان كما عرفوا بالسخاء على من حولهم وعلى من يجتمع معهم من الفتيان . وكانوا شجعاناً ، يخرجون الى القنص والصيد . وقد أشار أهل الأخبار الى أسماء بعض هؤلاء الفتيان [2] .

وشباب الجاهلية مثل شباب أهل كل زمان ، لا يختلفون عنهم بشيء ، في تأنق بعض منهم وفي محاولته اظهار شبابه تجاه البنات . فكان شباب القرى والمدن ولا سيما الوضيئون منهم وأهل الجمال يتسكعون في الأسواق وفي مواضع التجمع ، بل وحتى في المعابد ليعبثوا في كلامهم مع البنات وليتحدثوا اليهن ، شأن أي شاب في هذه الدنيا بالنسبة الى الشابات . وقد اضطر آباء وأقرباء بعض هؤلاء الشباب على تقريع أبنائهم لتجاسرهم على بنات الحيّ . حتى منع البعض من الشباب الجميل من التأنق في الملبس حتى لا يلفتوا اليهم أنظار البنات ، فيثرن فيهم عاطفة الجموح نحو التشبيب والحب .

وذكر (محمد بن حبيب) أسماء رجال من مكة كانوا يتعممون مخافة النساء على أنفسهم من جمالهم [3] . ويظهر انهم كانوا يرخون العمائم حتى تنزل على الوجه فتخفي معالمه ، ولا يبدو عندئذ شيء من معالم جمال ذلك الشخص . ولم يذكر فيما اذا كانوا قد فعلوا ذلك من أنفسهم ضبطاً للنفس من الوقوع في غوى الشيطان ، وتحت تأثير سحر العيون ، أم انهم أجبروا على ذلك إجباراً ، على

---

١ المحبر (١٧٣ وما بعدها) ، تاج العروس(١٠/٢٧٥ وما بعدها) ، (مسى) تاج العروس (٩/٣٤١) ، (مجن) .

٢ المحبر (١٧٣ وما بعدها) .

٣ المحبر (ص ٢٣٢)

نحو ما كان يفعله أهل مكة بالنسبة الى المستهترين من شبابهـــم ، ليكون التعميم أحد الحواجز التي تحول دون سقوط عين المرأة على الشاب الجميل أو الرجـــل الجميل . أو انهم فعلوه هم ، على انه (موضة) وَذِيٌّ من أزياء الشباب . ومن الرجال الذين ذكر (ابن حبيب) انهم تعمموا مخافة النساء ولم يكونوا من أهـل مكة ، (امرؤ القيس بن حجر الكندي) ، و (قيس بن الخطيم) الأوسي ، و (ذو الكلاع الحميري) ، و (زيد الخيل بن مهلهل الطائي) . ولم يذكر السبب في اقحام مثل هذه الأسماء في موضوع التعمم بمكة . هل ذكرهم بمعنى انهـــم كانوا اذا قدموا مكة تعمموا ، خشية الوقوع في هوى النساء ، فيجلب عليهم صداعاً وصداماً مع أهل أولئك النسوة ، أو انه ذكرهم بمعنى انهم كانوا يتعممون مثل أهل مكة حذر الوقوع في الحب ، فدرج أسماءهم في هذا الموضع لهذه المناسبة .

وقد ذكر (ابن حبيب) ان (الخضر) ، وهو أحد من كان يتعمم مخافة الوقوع في حب النساء ، لم يكتف بالتعمم ، بل تبرقع أيضاً [1] . ولعله فعل ذلك بتأثير ديني . أخذ ذلك عن الرهبان والمتزمتين بدينهـــم من أهل الجاهلية الذين حجبوا أنفسهم عن الناس وآووا الى الغار أو قمم الجبال للتبصر والتأمل والابتعاد عن الملأ ، ولا سيما عن النساء .

الفتيان :

وعُرف شباب أبناء الأغنياء والجـــاه بـ (الفتيان) . وأحدهم (فتى) . ويراد به الشاب . وقـــد تطلق على السخيّ الكريم ، وهو من (الفتوة) [2] . وكثيراً ما نقرأ في كتب أهل الأخبار جملاً تشير الى (الفتوة) في الجاهلية ، مثل (وهو من فتيان قريش أيضاً) [3] . يريدون بذلك جماعـــة من أبناء الأسر عـــاشت عيشة شباب وعبث ، تلهـــو وتشرب ، وتنفق وتعطي ، وتغيث ،

١ المحبر (٢٣٢) .
٢ تاج العروس (٢٧٥/١٠) ، (فتى) .
٣ المحبر (ص ١٧٦) .

وتتسابق ، وتقتل وقتها في اللذة والاستمتاع وفي الانفاق على الجسد ، على نحو ما يفعله أبناء الطبقة المترفة في كل وقت . وقد كانت لها نجدة وشهامة ، اذا استُنجد بأحدها هبّ لنجدة المستنجد ودافع عنه .

الأحامرة :

والحياة عند بعض الناس : خمر ولحم وخُلوق . فهي متع الحياة عندهم . قال الأعشى :

إن الأحامرة الثلاثة أهلكت مالي وكنت بها قديماً مولعاً
الخمر واللحم السمين وأطلي بالزعفران فلن أزال مبقعا[1]

والحياة عند البعض خمرٌ ونساء . واتهمت المرأة بحبها الحليّ والطيب . ورد : (أهلك النساء الأحمران . يعنون الذهب والزعفران ، أي أهلكهن حب الحليّ والطيب) . وورد (الأحمران : اللحم والخمر) . ويقال للذهب والزعفران : الأصفران ، وللماء واللبن الأبيضان ، وللتمر والماء الأسودان . وفي الحديث : أعطيت الكنزين الأحمر والأبيض . والأحمر الذهب والأبيض الفضة . والذهب كنوز الروم ، لأنها الغالب على نقودهم . وقيل أراد العرب والعجم . وقيل : الأحامرة : اللحم والخمر والخلوق . وورد الأحمران : الخمور والبرود[2] .

الخمور :

وفي مجتمع الحياة فيه على وتيرة واحدة ، والفراغ فيه أكثر من العمل ، ومرافق اللهو والتسلية فيه قليلة أو معدومة ، والفقر فيه أكثر من الغنى ، وتشغيل الفكر فيه محدود ضيق — في مجتمع كهذا المجتمع لا بد وان يقبل الناس فيه على قتل فراغهم بالبحث عن شيء ينسيهم فراغهم وفقرهم وشدة حاجتهم ، ويلهيهم عن قساوة الطبيعة عليهم ، ويبعث فيهم الأمل والطرب والنشوة ، والشعور بأنهم

---

١ تاج العروس (٣/١٥٤) ، (حمر) .
٢ تاج العروس (٣/١٥٤) ، (حمر) ، الحيوان (٣/٢٤٩) ، (هارون) .

سادة ملكوا الدنيا ، وان كل واحـد منهم هو (رب الخورنق والسدير) [1] ، فكان اقبالهم على الخمر شديداً ، حتى أفرطوا في شربه وآذى بعضهم نفسه من شدة إقباله عليه ، فصار آفة من الآفات ، حتى ضحى شاربه بمركزه وماله في سبيله ، فكان ذلك من عوامل تحريمه في الاسلام .

وقد كان الخمر من متع الحياة الثلاث بالنسبة للشباب . والمتع الثلاث : الخمر والقمار والنساء [2] . فاذا أضيفت الشجاعة اليها صار الفتى من خيرة الفتيان ، لذلك كان الشباب يفتخرون اذا جمعوا بين هذه المتع ويتباهون على غيرهم بها . وربما ارتكبوا المعاصي والمخالفات في سبيل الحصول على المال للانفاق على متعهم هـذه وعلى ملذاتهم وملاهيهم في هذه الحياة .

ومن أسماء الخمر : العقار ، سُميت لعاقرتها أي لملازمتهـا الدنّ . والمعاقرة الإدمان ومعاقرة الخمر إدمان شربها . وقيل سميت عقاراً لأن أصحابها يعاقرونهـا أي يلازمونها أو لعقرها شاربها عن المشي ، وقيل هي التي لا تلبث ان تُسكر [3] .

والسكران نقيض الصاحي . والسكر حالة تعترض بـين المرء وعقله . وأكثر ما يستعمل ذلك في الشراب المسكر . و (السكّير) الكثير السكر [4] . و (المدمن) هو الملازم للشراب وغيره ، لم يقلع عنه ، فهو يلازمه ولا يقلع عن شربه أو شرب الخمر [5] .

وقد أدمن كثير من أهـل الجاهلية على شرب الخمر ، وهلك قسم منهـم بسببها . وقد حذر من ذلك الاسلام فورد : « مدمن الخمر كعابد الوثن » [6] ، و « لا يدخل الجنة مدمن خمر » [7] .

١ واذا سكرت فانني رب الخورنق والسدير واذا صحوت فانني رب الشويهة والبعير
وقال حسان بن ثابت :
ونشربها فتتركنـا ملوكـا وأسدا ما ينهنهنـا اللقـاء

٢ المبريزي ، شرح القصائد العشر (٤٣) .
٣ تاج العروس (٣/٤١٧) ، (عقر) .
٤ تاج العروس (٣/٢٧٣ وما بعدها) ، (سكر) .
٥ اللسان (١٣/١٥٩) ، (دمن) .
٦ اللسان (١٣/١٥٩) ، (دمن) .
٧ المستطرف (٢/٢٢٩) .

وعرف علماء اللغة (الخمر) بما أسكر من عصير العنب ومن عصير كل شيء يُسكر . ولما نزل الأمر بتحريم الخمر ، كان شرابهم بالمدينة يومئذ الفضيخ ، البُسْر والتمر في الغالب[1] . غير ان الجاهليين كانوا يصنعون الخمر من أي شيء يقع في أيديهم مما يمكن تخميره للحصول على مادة مسكرة منه مثل الحبوب الأعشاب وغير ذلك ، بل كان منهم من يخمر اللبن ، ولا سيما البان الإبل ، للانتشاء بها . و (النشوة) السكر[2] .

وكان أهل المدينة يسقون ضيوفهم شراباً من الفضيخ . فاذا جاءهم ضيف سقوه منه . كانوا يضعونه في قِلال وجِرار وهو خليط من بسر وتمر ، ومن تمر وزَهْو . والزهو[3] هو البسر الملون الذي ظهرت فيه الحمرة والصفرة[4] ، كما كانوا يصنعونها من خلط الزبيب والتمر[5] أيضاً . وكانوا يجلسون مجلسهم ، ويسقيهم أحد أبناء صاحب الدار أو خادم من خدمه : من قلال أو كؤوس يدور بها عليهم قليلاً قليلاً[6] .

واستخرج أهل اليمن من الشعير شراباً عرف عندهم باسم (المزر)[7] . وذكر ان (المزر) نبيذ الذرة والشعير والحنطة والحبوب ، وقيل : نبيذ الذرة خاصة . وذكر أبو عبيد ان ابن عمر فَسّر الأنبذة ، فقال : البِتع نبيذ العسل ، والجعة نبيذ الشعير ، والمزر من الذرة ، والسكر من التمر ، والخمر من العنب[8] .

وورد ان أهل اليمن كانوا يتخذون شراباً مسكراً من القمح يستعينون به على برد بلادهم ويتقوّون به على عملهم . وقد منعوا عن ذلك في الاسلام حين نزل الأمر بتحريم الخمور[9] .

١ تاج العروس ٣/١٨٦ وما بعدها) ، (خمر) ، صحيح مسلم (٦/٨٥) ، (باب تحريم الخمر) .
٢ تاج العروس (١٠/٣٦٨) ، (نشي) .
٣ بفتح الزاي وسكون الهاء وبالواو ، وقد يضم الراي .
٤ صحيح مسلم (٦/٨٧ وما بعدها) .
٥ صحيح مسلم (٦/٨٩) .
٦ تاج العروس (٣/٥٤١) .
٧ صحيح مسلم (٦/٩٩) .
٨ تاج العروس (٣/٥٤١) ، (مرر) ، الاصابة (١/٤٦٦) .
٩ الاصابة (١/٤٦٦) ، (رقم ٢٤٠٩) .

ومن الخمور نوع اشتهر في العراق باسم (الخمور الصريفية) نُسبت الى قرية (صريفون) عند (عكبراء) في العراق ، وإياها عنى الأعشى بقوله :

وتجبى اليه السيلحون ودونها صريفون في أنهارها والخَوَرْنَقُ

ووصف الأعشى في شعر آخر الخمر الصريفية فقال :

تعاطي الضجيع اذا أقبلت بُعَيْدَ الرقاد وعند الوَسَنْ
صريفيةٌ طيّبٌ طعمهـا لها زبد بين كوبٍ ودن

وذكر بعض العلماء انها إنما عرفت بصريفية ، لأنها أُخذت من الدن ساعتئذٍ كاللبن الصريف[1] .

وكانوا يضعون خمرهم في زِقٍّ يحملونه معهم ، فأينما يكون الانسان يكون خمره معه . وقد كانوا يكثرون من استعماله كما يظهر ذلك من روايات أهـل الأخبار مع فقر شاربها وعدم وجود طعام عنده . أما في المدن والقرى والحواضر ، فهناك خمارات ، جمعت الى الخمر وسائل المتع الأخرى ، يقصدها أهل المكان والغرباء للاستمتاع بها ، والترفيه عن خاطرهم . وقد هيأت بعض الخمارات المغنين فيها وجلبوا الى حاناتهم أنواع الخمور .

وكانت الخمارات منتشرة في كل مكان ، ولا سيما على الطرق . حيث ينزل بها المسافرون للاستراحة واستعادة النشاط بعد تعب ونصب . وكان بمكة وبسائر القرى خمارات كذلك . أصحابها نصارى ويهود في الغالب . ومعظمهم من غير العرب ، وفدوا من الخارج للتكسب والعيش فامتهنوا مهنة بيع الخمر وإسقائهـا للناس . وقـد عرفت (الخمارة) بالحانوت . يذكر علماء اللغة ان (الحانوت دكان الخمر) . وقـد أشير الى بالحانوت في الشعر الجاهـلي . وكانت العرب تسمي بيوت الخمارين الحوانيت . وأهل العراق يسمونها المواخير . وورد ان الخليفة (عمـر) أحرق بيت (رويشد الثقفي) ، وكان حانوتـاً يعاقر فيه الخمر ويباع[2] . وعرفت (الخمارة) بالدكة أيضاً[3] .

---

١ تاج العروس (٦/١٦٤) ، (صرف) .
٢ تاج العروس (١/٥٣٩) ، (حانوت) .
٣ تاج العروس (٩/٢٠١) ، (دكن) .

وقد يجتمع فتيان من مواضع شتى للشرب ، فيقال لهـم (الأندرون) . يتنادرون فيما بينهم بما شذّ وخرج من الجمهور . وذكر ان قول عمرو بن كلثوم :

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا

هو في هذا المعنى [1] .

وقد تاجر اليهود بالخمر ، وفتحوا لهم الخمارات في الأماكن التي أقاموا بها من جزيرة العرب ، فقصدها الناس للشرب . ومن جملتهم الشاعر الأعشى الذي كان كلفاً بشرب الخمر حريصاً على تعاطيها ، قيـل انه عزم على الدخول في الاسلام وأراد الذهاب الى الرسول لينشده ويعلن أمامه دخوله في الاسلام ، ونظم شعراً في مدحه ، فأدرك (أبو سفيان) ما في شعر (الأعشى) في مدح الرسول والاسلام من أثر في تصرفه وفي إضعاف قريش ، فلفيه وحادثـه وكلّمه وجاءه من ناحية نقطة الضعف التي كانت فيه . وهي حبّه للخمرة . فهيّج أشجانـه فيها ، وأظهر له كيف ان الاسلام حرّمها على المسلمين ، وجعل في شربها الحدّ ، فهو سيُحرم من متعته الوحيدة التي بقيت له في حياته ان دخل في الاسلام . وأثار فيه الحنين اليها ، ورغّبه في الذهاب الى قومه والمكوث هناك سنة يشربهـا ، ثم يرى رأيه بعد ذلك ، فإما ان يستمر على شربها ، واما ان يعافهـا ويدخل في الاسلام ، على ان يأخذ مقابل ذلك مائة من الإبل . فأثر كلام (أبو سفيان) فيه ، وأخذ الإبل وذهب بها الى قومه وأقام بـ (منفوحة) حتى مات بهـا قبل الحول [2] .

وذكر (بلينيوس) ان العرب كانوا يصنعون الخمر من النخيل ، وذلك كما يفعل سكان الهند [3] . ويقصد بذلك التمور بالطبع . وقد ذكر ذلك من باب التنويه بالأمور الغريبة . فليس استخراج الخمر من التمور مألوفاً عند اليونان والرومان .

---

١ تاج العروس (٣/٥٦٠) ، (ندر) .

٢ جمهرة أشعار العرب (٥٦) ، الشعر والشعراء (١٣٥) ، الأغاني (٨/٧٧) ، (١٠/١٤٣) ، (١٥/٥٢) ، (١٦/١٦٠) ، المحبر (٣٢١) .

٣ مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الثالث ، الجزء الاول ، (ص ١٣٩) ، (١٩٥٤م)، (بلاد العرب : من تاريخ بلينيوس) .

ولهذا السبب أشار اليه ، ليقف عليه قومه . غير ان العرب كانوا يستخرجون النبيذ من الكروم أيضاً ، وذلك في الأماكن التي توفرت فيهـا الكروم ، مثل الطائف واليمن . وقد أشار (سترابون) الى صنع الخمر من التمر[1] .

أما خمور العرب فمن البِتع ، وهو نبيذ العسل ، وهو خمر أهـل اليمن . ومن التمر ومن البُرّ والشعير والزبيب . ولأهل اليمن شراب من الشعير ، يقال له المزر ، أشرت قبل قليل اليه[2] .

وشرب الجاهليون أشربة استخرجوها من الذرة ومن مواد أخرى . فقد صنع أهل اليمن (المزر) من الذرة أيضاً . فلما أسلم قوم منهم سألوا الرسول عنه . فقال لهم : أله نشوة ؟ فلما قالوا له : نعم ، قال : فلا تشربوه[3] .

وانتبذوا في (النقير) : أصل النخلة ينقر فينبذ فيه ، فيشتدّ نبيذه . وذُكر ان أهل اليمامـة كانوا ينقرون أصل النخلة ثم يشدخون فيهـا الرطب والبسر ثم يدعونه حتى يهـدر ثم يموت[4] وانتبذوا في (الحنتم) : الجرار الخضر ، وفي (الدبّاء) ، اليقطين ، وفي (المزفت) أي ما طلي بالزفت[5] .

ومن الخمور (المقدى) . يتخذ من العسل على بعض الروايات . يقال انـه من قرية تسمى (المقدة) بالأردن ، وقيل هي في طرف حوران قرب أذرعات[6] .

وللخمر أسماء عديدة ، ذكرها علماء اللغة . منها ما هي معربة . عربت عن اليونانيـة ، أو الفارسية ، أو السريانية ، لأنهـا استوردت من بلاد الشام ، أو العراق[7] .

ومن الخمور خمر يقال له : (الاسفنط) . وهو المطيَّب من عصير العنب .

---

١ مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد الثاني ، (١٩٥٢ م) ، (ص ٢٦٧) .
٢ العقد الفريد (٦/٣٥٦) .
٣ الاصابة (١/١٣٣) .
٤ تاج العروس (٣/٥٨١) ، (نفر) .
٥ القسطلاني ، ارشاد الساري (٦/١١) .
٦ تاج العروس (٢/٤٦٠ وما بعدها) ، (قد) .
٧ راجع كتب اللغة والأدب .

وقيـــل هي خمر فيهـــا أفاويه ، أو أعلى الخمر وصفوتهـــا . وذكر ان اللفظة (رومية) . قال الأعشى :

وكان الخمر العتيق من الا سفنط ممزوجـــة بماء زلال
باكرتها الأغراب في سنة النو م فتجرى خلال شوك السيال [1]

واستعمل الجاهليون أواني الشرب المصنوعـــة من الزجاج والباور ومن الذهب والفضة ، واستعملوا أواني أخرى تتناسب مع منزلة الشارب ومكانته . وقـد كان ملوك الحيرة وماوك الغساسنة يشربون بالآنية الغالية ، وبعضها منقوش . وكذلك تفنن أغنياء مكة في الشرب ، فاستعمل عبد الله بن جُدعان الأواني المصنوعة من الذهب في شربه ، حتى ضرب به المثل ، فقيل : (أفرى من حاسي الذهب) ، وعرف بـ (حاسي الذهب) . وشرب غيره من أصحاب الثراء بأواني غاليـــة استوردوها من الخارج ، على حين كان أكثر سكان مكة ففراء لا يملكون شيئاً . ولهذا ورد في الحديث النهي عن الشرب بآنية الذهب والفضة [2] . وقـد ذكر ان النابغة الذبياني ، وهو من شعراء الجاهليـــة الكبار ، كان لا يأكل ويشرب إلا في آنيـــة الذهب والفضة ، من عطايا النعمان وأبيـــه وجدّه ، ولا يستعمـــل غير ذلك [3] .

وحرم قوم من الجاهليين الخمر على انفسهم ، وأكثرهم ممن يسمّون الأحناف ، ومنهم من كان يشربها ويقبل عليها ، ولكنه وجد نفسه وقد قام بأعمال لم يرتضيها ، جعلته يشعر بالخجل منها ، فتركها وحرمها على نفسه . ويذكر اهل الاخبار ان اول من حرمها على نفسه وامتنع منها في الجاهلية ، هو (الوليد بن المغيرة) . وهو رجل ينسب اليه اهـــل الاخبار جملة امور ، منها انه اول من خلع نعليه لدخول الكعبة في الجاهلية ، فخلع الناس نعالهم في الاسلام ، وأول من قضى بالقسامة في الجاهلية فأقرها الاسلام ، وأول من قطع في السرقة في الجاهلية ، فأقرّها

---

١ تاج العروس (٥/١٥٤) ، (الاسفنط) .
٢ شمس العلوم ، الجزء الاول ، القسم الثانى (ص ٢٩٣) ، بلوغ الأرب (١/٨٧) .
٣ بلوغ الأرب (٣/٢٢) .

الاسلام . ويذكرون ان الجاهليين كانوا يقولون : « لاوَثَوْبَيْ الوليد ، الخلق منها والجديد » [1] .

وممن ترك الخمر في الجاهلية (عبد الله بن جدعان) ، وسبب تركه لها انه شرب مع اميـــة بن ابـي الصلت الثقفي ، فلطم وجه (امية) بعد ان ثمل ، فأصبحت عينه مخضرّة فخاف عليها الذهاب ، فسأله عبد الله : ما بال عينك ؟ فقال : انت اصبتها البارحة . قال : وبلغ مني الشراب ما ابلغ معه من جليسي هذا المبلغ ، فأعطاه عشرة آلاف درهم ، وقال : الخمر عليّ حرام ، لا أذوقها ابداً [2] . وذكر ايضاً انه سكر فجعل يساور القمر . فلما اصبح أُخبر بذلك ، فحرمها [3] . الى غير ذلك من قصص .

وممن حرمها في الجاهلية ، قيس بن عاصم المنقري ، وعامر بن الظرب العدواني ، وصفوان بن أُمية بن محرث الكناني ، وعفيف بن معديكرب الكندي ، والاسلوم ابن اليامي من همْدان ، ومقيس بن عديّ السهمي ، والعباس بن مرداس السلمي ، وسعيد بن ربيعة بن عبد شمس ، وورقة بن نوفل ، والوليد بن المغيرة ، وأبوه اميه بن المغيرة ، والحارث بن عبيد المخزومي ، وزيد بن عمر بن نفيل ، وعامر ابن جذيم الجمحي ، وأبو ذر الغفاري ، ويزيد بن جعونة الليثي ، وأبو واقد الحارث بن عوف الكناني ، وعمرو بن عَبَسَة ، وقسّ بن ساعدة الإيادي ، وعبيد ابن الابرص ، وزهير بن ابـي سُلْمى المزني ، والنابغتان الذبياني والجعدي ، وحنظلة الراهب بن ابي عامر ، وقبيصة بن اياس الطائي ، واياس بن قبيصة بن ابـي غفر ، وحاتم الطائي ، و (سويد بن عدي بن عمرو بن سلسلة الطائي) [4] .

وذكر ان ممن حرم الخمر على نفسه في الجاهلية : (بشير الثقفي) . وكان نذر في الجاهلية الا يأكل الجزور ولا يشرب الخمر [5] .

---

١ المعارف (ص ٢٤٠) .
٢ نهاية الأرب (٤/٨٨) .
٣ المحبر (٢٣٧) .
٤ المحبر (ص ٢٣٧ وما بعدها) ، نهاية الأرب (٤/٨٨ وما بعدها) ، بلـوغ الأرب (٢/٢٩٤ وما بعدها) ، الأمالي ، القالي (١/٢٠٤ وما بعدها) ، الأغاني (٥/٩) ، (بيروت) .
٥ الاصابة (١/١٦٠) .

وروي ان (عفيف بن معديكرب الكندي) ، عم الأشعث بن قيس ، كان قد طلق الخمر وحرّمها على نفسه وحَرَّمَ معها القمار والزنى ، والثلاثة من اهم وسائل التلهي والتمتع بالحياة عند الجاهليين [1] . وكان قيس بن عاصم يأتيه في الجاهلية تاجر خمر فيبتاع منه ولا يزال الخمار في جواره حتى ينفد ما عنده . فشرب قيس ذات يوم فسكر سكراً قبيحاً ، فجذب ابنته وتناول ثوبها ، ورأى القمر فتكلم بشيء ثم نهب ماله ومال الخمار . فلما صحا اخبرته ابنته بما صنع وما قال فآلى لا يذوق الخمر [2] .

وبعض هؤلاء هم من الحنفاء ، وبعضهم من السادة الأشراف الذين لم يتذوقوها ، او انهم تعاطوها ثم رأوا ضررَها فتركوها وحرموها على انفسهم . ويظهر ان بعضهم قد حرمها على نفسه وعلى آله ايضاً ، فذكر مثلاً ان الوليد بن المغيرة ضرب فيها ابنه هشاماً على شربها ، ولعلّ منهم من كان يستعمل الحدّ ، وهو الجزاء الذي قرره الاسلام على شاربي الخمر .

وقد اشار اهل الاخبار الى وقوع حوادث لأكثر من ذكرتهم دفعتْ بهم الى تحريم الخمر على انفسهم ، كالذي ذكرته من امر عبد الله بن جدعان ، وكالذي اشار اليه اهل الاخبار من تحرش بعضهم بمحارمهم تحرشاً لا يفعله انسان سويّ ، او تخليطهم اثناء سكرهم وقيامهم بأعمال مضحكة صيّرتهم سخرية للحاضرين ، فلما صحوا وسمعوا بما فعلوا ندموا على ما بدا منهم ، وقرروا اجتنابها وتحريمها على انفسهم منذ ذلك اليوم [3] .

وكان الجاهليون يشتدون على النساء في شرب الخمر حتى لم يُحفظ انّ امرأة سكرت [4] .

المخدرات :

لم اعثر على نص جاهلي جاء فيه ذكر لاستعمال اهل الجاهلية للمخدرات ، ولم

---

١ بلوغ الأرب (٢/٢٩٤) .
٢ بلوغ الأرب (٢/٢٩٧) .
٣ المحبر (ص ٢٣٧ وما بعدها) .
٤ بلوغ الأرب (٢/٢٩٧ وما بعدها) .

اعثر في اخبار اهل الاخبار على خبر يفيد تعاطي الجاهليين لها . ولكن هذا لا يعني نفي معرفة عرب الجاهليـــة بالمخدرات ، ويظهر ان إفراطهم في تناول الخمور ووجود الخمور الرخيصة لديهم ، وتحضيرهم لها بطرق بدائية رخيصة ، وتخدرهم بها ، كانت من الأمور التي صرفتهم عن استعمال المخدرات الاخرى التي ربما زاد ثمنها على ثمن الخمر .

الانتحار بشرب الخمر :

وقد قتل بعض الجاهليين انفسهم بشرب الخمر صرفاً ، ذكر (السكّري) منهم (عمرو بن كلثوم التغلبي) . وكانت الملوك تبعث اليه بجبائه وهو في منزله من غير ان يفد اليها . فلما ساد ابنه الأسود بن عمرو ، بعث اليه بعض الملوك بجبائه كما بعث الى ابيه ، فغضب (عمرو) وقال : (ساواني بولدي) ، وحلف لا يذوق دسماً حتى يموت ، وجعل يشرب الخمر صرفاً على غير طعام ، فلم يزل يشرب حتى مات [1] .

وأهلك (البرحُ بن مسهر الطائي) نفسه بشرب الخمر الصرف كذلك ، في قصة ذكرها (السكري) [2] .

و (زهير بن جناب بن هبل) ، هو ممن أتلف نفسه بشرب الخمر ايضاً ، لما خالفه ابن اخيه عبد الله بن عليم بن جناب ، فانزعج من ذلك وغضب ، وأمات نفسه بشرب الخمر . ذكر انه قال في ابن اخيه : (عدوّ الرجل ابن اخيه ، غير انه لا يَدَعُ قاتل عمه) [3] .

وذكر ان (ابا براء بن مالك بن جعفر) ، قتل نفسه بشرب الخمر ايضاً ، انتحر لمخالفة قومه امره . فدعا قَيْنَتَيْنِ له ، فشرب ، وغنتاه ، ثم دعا بالشاعر (لبيد) ، وطلب منه ان يقول ما يقول فيه من المراثي ، فلما اثقله الشراب ، اتكأ على سيفه حتى مات [4] .

---

١ المحبر (٤٧١) .
٢ المحبر (٤٧١) .
٣ المحبر (٤٧١) ، الاصابه (٢/٢٤٩) ، (رقم ٤٤٢٣) .
٤ المحبر (٤٧٢ وما بعدها) ، الاصابة (٢/٢٤٩) ، (٤٤٢٣) .

الاغتيال :

الغيلة : هي الخديعة وايصال الشر او القتل الى انسان من حيث لا يعلم ولا يشعر [1] . وقد كان معروفاً بين الجاهليين ، شجع على ظهوره وانتشاره بينهم عُرف الأخذ بالثأر ، والتنافس الذي كان بينهم على الرئاسة والوجاهة ، وقواعد مجتمع ذلك الوقت التي كانت تقيم وزناً كبيراً للكلمة ، وللمدح والهجاء ، ولتقديم شخص على شخص في الجلوس في مجلس من المجالس ، فكانت هـذه الامور وأمثالها تدفع من يتعرض لها على الانتقام ممن اهانه والتربص به وتتبع آثاره حتى يتمكن من قتله او اغتياله .

وقد اتبع المغتالون اساليب شتى في الاغتيال . منها الطعن بالرمح او بالخنجر او بالسكين ، ومنها الذبح ، والخنق ، ومنها اللجوء الى الحيلة بدس السم في الشراب او الطعام ، الى غير ذلك من اسباب الغيلة .

والغيلة غير الفتك . ذُكر ان الفتك ان يقتل الرجل الرجلَ مجاهرة . وهو ان يأتي الرجل صاحبه وهو غارٌّ غافل حتى يشد عليه فيقتله ، وان لم يكن اعطاه اماناً قبل ذلك ، ولكن ينبغي له ان يعلمه ذلك .

قال المخبل السعدي :

وإذْ فتك النعمان بالنـاس محرما فمن ليَ من عوف بن كعبٍ سلاسله

وكان النعمان بعث الى (بني عوف بن كعب) جيشاً في الشهر الحرام ، وهم آمنون غارون فقتل فيهم وسبا [2] .

ولمحمد بن حبيب السكري ، كتاب ذكر فيه اسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والاسلام ، وأسماء من قُتل من الشعراء [3] . بدأ فيه بـ (جذيمة الأبرش)

١ تاج العروس (٨/٥٣) ، (غبل) .
٢ تاج العروس (٧/١٦٦) ، (فنك) .
٣ نوادر المخطوطات ، (القاهرة ١٩٥٤ م) ، المجموعة السادسة (تحقيق عبد السلام هارون) .

الذي غدرت به (الزباء) ملكة (تدمر) ، فأجلسته على نطع ، وسقته الخمر ، ثم أمرت بقطع رواهشه ، حتى مات . ثم ثنى بـ (حسان بن تبع) ، فزعم ان اخاه قتله غيلة وهو نائم على فراشه ، طمعاً في ملكه ، ثم تكلم عن (عمليق) ملك طسم ، وكانت منازلهم (عذرة) في موضع اليمامة [1] . وذكر في جملة من ذكرهم اسم (عمرو بن مسعود) و (خالد بن نضلة) من بني (أسد) . وكانت أسد وغطفـــان حلفاء لا يديبون ويغيرون عليهم ، فوفدا سنة من السنين ومعهما (سبرة بن عمير الفقعسي) الشاعر ، على (المنذر) الأكبر اللخمي ، فكلّمهما في أمر دخولهما في طاعته والذب عنه كما ذبت (تميم) و (ربيعة) ، فعلم انهم لا يدينون له . فقرر الكيد بهما ، فأومأ الى الساقي فسقاهما سماً ، فماتا ، ثم ندم على ما فعل ، فأمر فحُفر لهما قبران ودفنا فيهما ، وبنى عليهما منارتين ، وهما (الغريان) وعقر على كل قبر خمسين فرساً وخمسين بعيراً ، وغرّاهما بدمائهما ، وجعل يومَ نادمهما يوم نعيم ، ويوم دفنهما يوم بؤس [2] .

وقد كان خنق الأشخاص في جملة وسائل الاغتيال والتخلص من الأعداء ، وقد ذُكر ان الملك (النعمان بن المنذر) ، أمر بخنق (عدي بن زيد العبادي) ، فمات منه . ويكون الخنق بالضغط الشديد على الرقبة باليد ، وباستعمال الحبل او قطع القماش . ويقال للحبل الذي يخنق به (الخناق) [3] .

وذكر ان (الحكم بن الطفيل) ، لما انهزم في نفر من أصحابه يوم (الرقم) (حتى انتهوا الى ماء يقال له المرورات ، فقطع العطش أعناقهم فماتوا ، وخنق ابن الطفيل نفسه مخافة المثلة ، فقال في ذلك عروة بن الورد :

عجبت لهم اذ يخنقـــون نفوسهم ومَقتلهم تحت الوغى كان أعذرا [4]

الصيد :

والصيد في جزيرة العرب رغبة وحاجة . رغبة للملوك والرؤساء والاثرياء للأنس

---

١ (ص ١١٧) .
٢ (ص ١٣٣ وما بعدها)
٣ تاج العروس (٦/٣٣٩) ، (خنق) .
٤ ديوان عروة (١٣٥) ، نهاية الارب (١٥/٣٦٤) .

والترويح عن النفس ، وحاجة عند السواد وهم فقراء في الغالب لا يملكون شيئاً ، فلحم الصيد نعمة كبرى لهم وغذاء طيب لا يصل اليهم دائماً .

اما اصطياد الرؤساء والاثرياء فبالاستعانة بالصقور في الغالب ، حتى اذا قيل كُنّا نتصقر ، انصرف الذهن في الحال الى الصيد ، لاستعمال الطيور في الصيد ، حيث تُدرَّب تدريباً خاصاً وتعلم تعليماً متقناً ، فاذا رأت الحيوان انقضت عليه ، فلا تتركه يستطيع الحركة والهرب الى ان يصل الصياد الى الفريسة المسكينة . ويدعى قيِّم الصقور ومعلمها « الصقّار » . وتستعمل كلاب الصيد كذلك ، وهي كلاب سريعة مدربة تدريباً خاصاً ، فاذا رأت الصقر فوق الفريسة عَدَت خلفها لتساعد الصقر في القبض على الحيوان فلا يهرب ويولي . ومنها ما تفتش عن مواضع اختفاء الحيوانات ، فاذا شعرت بوجود حيوان في كهف او مغارة تدخل اليها او تقوم بحركات تضطره الى الخروج فيصطاده الصياد . وقد تستعمل الخيل كذلك . وهي لم تكن كثيرة في الجاهلية ، ولا يملكها الا المتمكنون .

وقد ذكر الصيد في آيات من القرآن الكريم ، مما يدل على اهميته ومكانته في حياة العرب يومئذ . ويقال للصيّاد القانص كذلك . وأما استثارة الصيد واخراجه ، فيعبَّر عن ذلك بلفظة « النُّجش » ، والمنجاش والنجاش هو المثير للصيد . ويقال : هَبَص الكلب اذا حرص على الصيد وقلق نحوه ، ويقال ايضاً : غَرَّبت الكلاب ، اذا امعنت في طلب الصيد .

وكانت العرب تعيش في الغالب بلحوم الصيد ، وكانت خيلهم تسهل عليهم نيل صيدهم ، وتعينهم على الوصول الى غايتهم . فكانت عندهم من اعز الأموال وأثمن الأشياء يُعتنى بها اعتناء الرجل بنفسه ، ولولاها حُرم من لذة أكل اللحوم . وكانت اذا اغارتها على صيد ، خضبوا نحر السابق بدم ما يمسكونه من الصيد ، علامة على كونه السبّاق الذي لا يدرك في الغارات [1] .

ولأهل الجاهلية عناية خاصة بـ (الصقور) . يربّونها تربية خاصة . وذكر علماء اللغة ان كل شيء يصيد من البزاة والشواهين ، صقر . وقد اشير الى صيد (الصقور) في الحديث [2] .

١ بلوغ الأرب (٣/١٨) .
٢ تاج العروس (٣/٣٣٩) ، (صقر) .

وقد استعانوا بالكلاب السريعة الجري في الصيد كذلك. وقد عُنوا بتربية أنواع ذكيّة سريعة الجري منها لمطاردة الفريسة ، اذا ادركتها نهشتها او قبضت عليها ، فيأتي الصياد ، فيأخذها منها .

ويتحايل الصيادون في الاصطياد ، فيحفرون حفيرة تلجَف من جوانبها ، اي يجعل لها نواحي ، وتعرف عندهم بالقُرْموص ، وذلك للتمويه على الحيوان. وقد يتخذ الصياد او اي شخص آخر موضعاً فوق اطراف الشجر والنخل خوفاً من الأسد ، فيقال لذلك « العرزال » . وأما « الزُبيـــة » فحفرة تحتفر للأسد ، وكذلك « الزونة » ، و « القُتْرة » حفرة يحتفرها الصائد يكمن فيها حتى لا يشعر به الصيد. وقد يدخّن الصائد في قترته لكيلا تجد الوحش ريحه ، ويقال لذلك « المُدَمّر » . و « الروق » موضع الصائد ، و « الدُجية » قترة الصائد. وهناك ألفاظ اخرى من هذا القبيل يراد بها الحفَر التي يستتر بها الصيادون في الصيد.

ويستخدم الصيادون جملة ادوات في الاصطياد ، منها آلة تسمى « الجَرّة » ، وهي خشبة نحو الذراع يجعل في رأسها كِفة وفي وسطها حبل ، فاذا نشب فيها الظبي ناوصها واضطرب ، فاذا غلبته استقر فيها . و « الحِبالة » الحبل الذي يصاد به. و « الأحبول » حبالة الصائد. وأما « الشرك » فحبائل الصائد والواحدة « شركة » و « المصلاة » شرك ينصب للصيد ، و « الكَصيصة » حبالة الظبي التي يصاد بها. وهناك آلة تشبه المنجل تشدّ بحبالة الصائد ليختطف به الظبي يقال لها « الخاطوف » . وأما « الرداعة » فمثل البيت تجعل فيه لَحْمة يصيد الصياد به الضبع والذئب . ويتخذ الصيادون بيتاً يبنونه من حجارة ، ثم يجعلون على بابه حجراً يقال له السهم . والمِلْسن يكون على الباب ، ويجعلون لحمة السبع في مؤخر البيت فاذا دخل السبع لتناول اللحمة ، سقط الحجر على الباب فسدّها ، وبذلك يحبس ، فلا يستطيع الخروج. ويقال لذلك البيت « الرواحة » . وأما « الجَريئة » ، فانها بمعنى « الرداعة » . ولعرقبة الحمير الوحشية تستعمل آلة خاصة تشبه الهلال يقال لها « هلال الصيد » .

وتستعمـــل الشباك في الصيد كذلك . تستعمل في صيد البحر والبر . ويغدف الصياد بالشبكة على الصيد ليأخذه . وأما القصبة التي تصاد بها العصافير ، فيقال لها الغاية . والغاية الراية كذلك . وأما « الرامق » و الرامج » فبمعنى المِلواح الذي يصاد به البُزاة والصقور ، وهو أن يؤتى ببومة فيُشدّ في رجلها شيء أسود ،

ويخاط عيناها . ويشدّ في ساقيها خيط طويل ، فاذا وقع عليهـا البازي صاده الصياد من قترته . ويقال انها لفظة عجمية . وقد تُعْشى الطيور بالليل بالنار ليصيدوها ، ويعبرون عن ذلك بجملة : قر القومُ الطيرَ .

و « المِفقاس » عودان يشدّ طرفاهما بخيط ، كالذي في وسط الفخ ، ثم يُلْوى أحدهما ، ثم يجعل بينهما شيء يشدهما ، ثم يوضع فوقهما الشركة ، فاذا اصابها شيء ، وثبت ، ثم اغلقت الشركة في الصيد . والعطوف والعاطوف مصيدة فيها خشبة منعطفة الرأس ، والمِقْلة والقُلة عود يجعل في وسطه حبل ، ثم يدفن ، ويجعل للحبل كِفة فيها عيدان ، فاذا وطىء الظبي عليها عضت على اطراف اكارعه . وأما الدّواحيل فخشبات على رؤوسها خِرق ، كأنها طرّادات قصار ، تركز في الارض لصيد حمر الوحش . وأما البُجّة ، فانها « الرداحة » . وأما « اللُبجة » ، فانها حديدة ذات شُعب كأنها كفٌّ بأصابعه تَنْفرِج ، فيوضع في وسطها لحم ثم يُشدّ الى وتد ، فاذا قبض عليها الذئب ، التبجت في خطمه ، فقبضت عليه ، وصرعته . و « النّامِرة » مصيدة تربط فيها شاة للذئب .

وقد يستتر الصياد بحيوان او غـيره ليخفي نفسه عن الصيد ، ويقال لذلك « الدريئة » ، وبهذا المعنى « الذريعة » و « الرقيبة » و « السيفة » ، واذا استتر الانسان بالبعير من الصيد فيقال لذلك « المسوق » .

وفي جزيرة العرب حيوانات وحشية ، وقد قلّ فيهـا الأسد الآن . اما في الجاهلية ، فقد كان معروفاً في مواضع عديدة عُرفت عندهم بالمآسد، جمع مأسدة[1] ، وقد كانوا يصطادونه بطريقة اسقاطه في حفر تغطى ، فاذا سار عليها الأسد سقط فيها ، وبطرق اخرى . وهناك الفهود والنسور والضباع والذئاب ، وتكثر القردة في المناطق الجبلية وفي النجود ، وهي لا تزال موجودة في نجود الحجـاز واليمن والعربية الجنوبية .

ويقال لمأوى الأسد في خيسه : (العريس) (والعريسة) . ويصعب صيده وهو في مكمنه ، وضرب المثل بذلك فقيل :

« كمبتغي الصيد في عِرّيسة الأسد »

---

١ (وأرض مأسدة : كثيرة الأسود) ، اللسان (٢/٧٢) ، (أسد) .

وقال طرفة :

كليوث وسط عريسِ الأجم [1]

ومن الحيوانات الوحشية المعروفة في جزيرة العرب الحمار الوحشي . ويظهر ان بعض الناس كانوا يأكلونه ، بدليل ما ورد في كتب الفقه من النهي عن أكل لحوم الحمر الوحشية . ويذكر علماء اللغة ان الحميريين كانوا يطلقون على الحمار لفظة « العُكسوم » و « الكسعوم » [2] .

ويكثر الظبي في جزيرة العرب ، ويطمع فيه الصيادون . وقد كان الجاهليون يلجأون الى حجوره فيسدّون ابوابها ويحفرون من موضع آخر للوصول اليه ، كما كانوا يضربون بحجر على الحجر ليفزع الظبي ، فاذا فزع تهيأ للقتال ، وتهيأ الصياد للقبض عليه ، ويتحايل عليه فيقبض عليه من ذيله . وهو ما زال كثيراً في مواضع عديدة من جزيرة العرب ، وقد استعملت السيارة في الزمن الحاضر في صيده وذلك في باب التجديد في الصيد [3] .

والنعام من الحيوانات المعروفة في جزيرة العرب . وقد ذكر علماء اللغة ألفاظاً كثيرة قالوا إن العرب اطلقوها على النعام ، على ذكر النعامة وعلى انثاها وعلى صغار النعام . ومنها « الجعول » ويراد بها ولد النعام ، وهي يمانية . وكذلك لأصوات النعام وجماعاتها [4] . وورود هذه الألفاظ دليل على كثرة النعام في جزيرة العرب ووقوف العرب عليها .

وأما اهل السواحل ، فقد اضطرتهم طبيعة بلادهم على الاصطياد في البحر ، على اصطياد سمكه ، للاعتياش عليه ولبيع الفائض منه . او لتجفيف الزائد منه لأكله وقت الحاجة او لتقديمه علفاً لحيواناتهم . وقد اشتهر سكان الخليج في الجاهلية ايضاً بالغوص لاستخراج اللؤلؤ من الصدف الكامن على قاع البحر . وقد كان يؤتيهم ذلك ارباحاً طائلة . اما اهل باطن جزيرة العرب والأماكن البعيدة عن السواحل فقد قلّ علمهم بالسمك ، لعدم وجود انواع منه في البوادي . وعدم امكان ايصاله طرياً اليهم . فقلّت اسماء انواعه في لهجاتهم . بينما نجد له اسماءً عديدة في لغات اهل السواحل لوجود انواع عديدة منه في البحار كانوا يصطادونها . فتكون القسمَ الغالب من اللحم عندهم .

١ اللسان (٦/١٣٦) ، (عرس) .
٢ المخصص (٨/٤٧) .
٣ فؤاد حمزة : في بلاد عسير (ص ٢٣) .
٤ المخصص (٨/٥١ وما بعدها) .

وذكر علماء اللغة ان (السمك) الحوت من خلق الماء[1] . وذكر ان الحوت مـا عظم من السمك[2] . ومن أنواع سمك البحر : (القرش)[3] . وهو من الأسماك العظام .

ومن وسائـل صيد السمك (العروك) ، خشب يلقى في البحر ، يركبون عليه ، ويلقون شباكهم ، يصيدون السمك[4] . و (العركيّ) صياد السمك . ولهذا قيل للملاحين عرك ، لأنهم يصيدون السمك . (وفي الحديث في كتابه الى قوم من اليهود : ان عليكم ربع ما أخرجت نخلكم ؛ وربع ما صادت عروككم ، وربع المغزل) . والعروك هم الذين يصيدون السمك[5] .

ومن عادة ملوك الحيرة والغساسنة انهـم كانوا يتبدون في المواسم الطيبة من السنة ، بعد هطول الأمطار واكتساء البادية بُسطَ الربيع ، وتعييد الطيور والماشية بالمناسـبة السعيدة . كانوا يخرجون الى البوادي للاستمتاع بالمناظر الجميلة وللصيد والقنص ، ومن الأماكن التي كان ملوك الحيرة يقصدونهـا منزل (ماوية) ، وهو منزل بـين مكة والبصرة[6] . ذكر ان الملك (النعـمان) كان اذا أراد الاستئناس برؤية حلل الربيع والماء ، خرج الى (النجف) والى البادية ، فتنصب له ولأصحابه القباب ويمضي أياماً هناك يتصيد ويستمتع بمنظر الشقائق ذوات الألوان الأخاذة الجاذبة للقلوب ، حتى زعم ان (شقائق النعمان) انما سميت بذلك نسبة اليه . جاء الى موضع وقد اعتم نبته من أصفر وأحمر واذا فيه من هذه الشقائق ما راقه ولم يرَ مثله ، فقال : ما أحسن هذه الشقائق ! إحموها ! وكان أول من حماها ، فسميت شقائق النعمان بذلك[7] .

ويظهر من حديث جرى بين يدي (النعمان) ان من العرب من كان يـذمّ الصيّاد ، ويفضل صاحب الإبل عليه . فقد روي ان (معاوية بن شكل) ذمّ

١ تاج العروس (٧/١٤٤) ، (سمك) .
٢ تاج العروس (١/٥٣٩) .
٣ تاج العروس (٤/٣٣٧) ، (قرش) .
٤ ابن سعد ، طبقات (١/٢٧٧) .
٥ تاج العروس (٧/١٦١) ، (عرك) .
٦ الاشتقاق (١٩١) .
٧ تاج العروس (٦/٣٩٨) ، (شق) .

(حجل بن نضلة) بين يدي النعمان ، إذ قال فيه : « انه مقبل النعلين ، منتفخ الساقين ، قعو الأليتين مشاء بأقراء ، قتال نلباء ، بياع إماء » . فقال له النعمان : « أردت ان تذمه ، فمدحته » ، وصفه بأنه صاحب صيد ، لا صاحب إبل[1] . ولعله قصد بذلك انه كان صياداً محترفاً ، اتخذ الصيد حرفة له . فقد كان بين الصيادين قوم اتخذوا الصيد لهم حرفة . فاذا اصطادوا باعوا صيدهم ، ولم يستفد منه ، فهو مثل الجزار ، الذي يبيع اللحم ولا يطعم أهله منه ، ولذلك نظروا اليه نظرة استصغار .

سباق الخيل :

والتسابق على ظهور الخيل رياضة الأثرياء والفرسان القديمة . وهي لا تزال معروفة ، وان كانت قد أخذت تلفظ أنفاسها بسبب اقبال الأثرياء على ركوب السيارات الفخمة التي لفتت أنظارهم وجرتهم اليها ، فلم يبق من يمارس تلك الرياضة القديمة إلا أولئك الذين لم تصل السيارات اليهم بكثرة ، لوعورة الطرق وامعانهم في البوادي وابتعادهم عن المواطن التي أخذت تعروها منتجات العرب .

ويذكر أهل الأخبار ان أول من ركب الخيل (اسماعيل) ، ولذلك سميت بـ (العراب) ، وكانت قبل ذلك وحشية كسائر الوحوش . خرج الى موضع (أجياد) ، فنادى بالخيل ، فلم يبق على وجه الأرض فرس بأرض العرب إلا أجابته فأمكنته من نواصيها وتذللت له . ولذلك قال النبي : (اركبوا الخيل فانها ميراث أبيكم اسماعيل)[2] .

وراهن أهل الجاهلية على الخيل . فكانوا يخرجون الى السباق ويقال : يجتمع الناس للرهان ، ثم يتراهنون هنالك على الخيل المتجمعة و (السابق) من الخيل ، وهو الأول ، هو الذي يأخذ الجائزة الأولى ، ويتلوه « المصلّي » وهو الفائز الثاني[3] . و « الحلبة » الدفعة من الخيل في الرهان خاصة . وقيل : خيل تتجمع

---

١ اللسان (١٥/١٧٩) ، (قرا) ، تاج العروس (١٠/٢٩٠) ، (قرى) ، (وقد وجدنا العرب يستذلون الصيد ويحقرون الصياد) ،الحيوان (٣/٣٠٩) ، (مارون) .

٢ الدميري ، حياة الحيوان (١/٣١١) .

٣ العقد الفريد (١/٢٠٦ وما بعدها) .

للسباق من كل أوب [1] . ومجمع الخيل .

ويقال للحبل الذي يمدّ في صدر الخيل عند الإرسال الحلب . والمنصبة الخيل حين تنصب للإرسال . ويقال للسابق من الخيل : الأول ، والمصليّ الثاني الذي يتلوه . وما سوى ذينك يقال له الثالث والرابع وكذلك الى التاسع ثم السُّكَيْت . فما جاء بعد ذلك لا يعتدّ به . والغسكل الذي يجيء آخر الخيل . وذكر : ان : أسماء خيل الحلبة عشرة لأنهم كانوا يرسلونها عشرة عشرة ، وسمي كل واحد منها باسم . فالأول منها السابق . وهو المُجَلّي لأنه كان يجلي عن صاحبه ، والثاني المُصلي لأنه يضع جحفلته على صلا السابق ، والثالث المسلي ، والرابع والخامس المرتاح ، والسادس العاطف ، والسابع المؤمل ، والثامن الحظيّ ، والتاسع اللَّطيم ، والعاشر السُّكَيْت ، والغسكل الذي يجيء آخر الخيل في الحلبة . ويقال للحبل الذي يجعل في صدور الخيل يوم الرهان المقبض والمقوس . وقيل في أسماء خيل الحلبة ان أولها المجلّي ثم المصلي ثم المسلي ثم العاطف ثم المرتاح ثم الحظيّ ثم المؤمل . هذه السبعة لها حظوظ ، ثم التي لا حظوظ لها . اللطيم ، ثم الوغد ، ثم السكيت [2] .

وكانوا يضعون عند نهاية الحدّ الذي يقررونه للسباق قصبة فمن يصل اليها قبل غيره من المتسابقين ، يعد السابق لقصبة السبق ، ويكون قد أحرز القصب لأن الغاية التي يسبق اليها تُذرَع بالقصب . وتركز تلك القصبة عند منتهى الغاية ، فمن سبق اليها حازها واستحق الخطر [3] .

و (الخطر) الذي يوضع بين أهل السباق ، وقيل الذي يوضع في النضال والرهان في الخيل فمن سبق أخذه . والسابق اذا تناول القصبة ، علم انه قد أحرز الخطر [4] . وكانوا يقلدون السابق من الخيل ؛ ولا يقلّد من الخيل إلا سابق كريم . ويقولون للسابق من الخيل : المفلّد [5] .

١ تاج العروس (٢/٣١١) ، (الكويت) .
٢ نهاية الأرب (٢/١٠٢ وما بعدها) ، تاج العروس (٢/١٥١) ، (روح) .
٣ اللسان (١/٦٧٧) ، (قصب) .
٤ اللسان (٤/٢٥١) ، (حطر) ، (١٠/١٥١) .
٥ تاج العروس (٢/٤٧٥) ، (قلد) .

وقد سابق الرسول بين الخيل التي قد ضُمِّرت من موضع « الحفياء » الى « ثنية الوداع » والمسافة بين الموضعين خمسة أميال أو ستة ، وقيل ستة أميال أو سبعة . وسابق بين الخيل التي لم تضمر من « الثنية » الى مسجد « بني زريق » والمسافة ميل أو نحوه . وسابق بين الخيل على حلل أتته من اليمن ، فأعطى السابق ثلاث حلل والمصلي حلتين ، والثالث حلة ، والرابع ديناراً ، والخامس درهماً ، والسادس قصبة . وقد ساهمت خيله في السباق .

وراهن رسول الله على الخيل ، وذكر ان أول مسابقة كانت في الاسلام سنة ست من الهجرة . سابق رسول الله بين الخيل ، فسبق فرس لأبي بكر فأخذ السبق . والمسابقة مما كان في الجاهلية ، فأقرها الاسلام [1] .

وفي الحديث : أحاديث عن الرسول في السبق ، منها : لا سبق إلا في خف أو نصل أو حافر ، فالخف للإبل ، والحافر للخيل ، والنصال للرمي [2] وبقية الأحاديث في كتب الحديث والفقه .

ولم يقتصر السباق عند الجاهليين على السباق بين الخيل ، بل سابقوا بين الإبل ، وجعلوا للسابق خطراً ، كما سابقوا بين الكلاب والحمير والحيوانات الأخرى .

ومن سباق أهل الجاهلية والاسلام ، السبق بالنصل ، أي المراماة بالسهم . وذلك بأن يوضع خطر ، ويذكر عدد الرمي والهدف ، فمن أصاب الهدف أكثر من غيره نال السبق . وقد عرف نفر من الجاهليين بإصابتهم الهدف ، وبقوة رميهم ، وجعلوا لقوة الرمي وشدته أو لرخاوته وللمكان من إصابته الهدف درجات هي : الخاضل ، والخازق ، والخاسق ، والحابي ، والمارق ، والخارم ، والمزدلف . والخاضل الذي يقرع الشن ولا يخدشه ، والخازق الذي يخدشه ولا يثقبه ، والخاسق الذي يثقبه ويثبت فيه ، والحابي ان يدني الرامي يده من الأرض فيرميه فيمر على وجه الأرض فيصيب الهدف ، والمارق الذي يمرق الشن

١ نهاية الأرب (٣٦٨/٩ وما بعدها) ، القسطلاني ، ارشاد (٧٨/٥ وما بعدها) .
٢ اللسان (١٥١/١٠) ، (سبق) .

أي يثقبه وينفذ فيـــه ، والخارم الذي يخرم طرف الشن أي يقطعه ، والمزدلف الذي يسقط بقرب الغرض ثم يشتن فيصيب الهدف[1] .

ومن السباق : المناضلة ، وهي المباراة في الرمي . والنضيل هو الذي يرامي ويسابق . والمناضلة المفاخرة والتسابق بالأشعار[2] . وتكون المباراة في الرمي بثلاثة أنواع : مبادرة ، ومحاطة ، ومناضلة . فالمبادرة ان يشترطا إصابة عشرة من عشرين ، فيبتدر أحدهما الى العشرة فينضل صاحبه ، والمحاطة ان يقولا نرمي عشرين رشقاً على ان من فضل صاحبه بخمس إصابات فقد نضله ، فإذا اشترطا ذلك ، ورمى كل واحد منهما عشرين رشقاً وأصابا إصابات نظر ان استويا في الإصابة لم يحصل النضل ، وان تفاوتا في الاصابة حط الأقل أو الأكثر ، فإن بقي لصاحب الأكثر الخمس المشروطة فقد نضل صاحبه ، وان بقي له أقل من الخمس المشروطة لم يحصل النضل . والمناضلة ان يشترطا عشرة من عشرين على ان يستوفيا جميعاً ، فيرميان معاً جميع ذلك ، فإنْ أصاب كل واحد منهما عشرة أو فوقها أو دونها لم يحصل النضل ، وان أصاب واحد منهما دون العشرة والآخر عشرة فما فوقها ، فقد نضل صاحبه[3] .

وللعرب عناية خاصة بالخيل ، وما زالوا يعتنون بهـــا الى اليوم ، حتى لقد حفظوا أنسابهـــا حفظهم لأنساب الناس ، وألفوا الكتب فيها . ونجـــد في كتب الأدب واللغة أسماء خيل اشتهرت في الجاهلية . وذكر (ابن النديم) في كتابه (الفهرست) أسماء كتب ألفت في الخيل ، ذهب أكثرها ، وبقي بعض منها . ونجد في (تاج العروس) أسماء خيل اشتهر أمرها في الجاهلية ذكرت في مواضع متناثرة من أجزاء الكتاب[4] . وذكر معها أسماء أصحابها ، كما أشار الى مؤلفات رجع اليها في هـــذا الموضوع مثل كتاب الخيل لابن الكلبي[5] ، وقـــد طبع ،

١ بلوغ الأرب (٣/٣٥٤) .
٢ تاج العروس (٨/١٣٨) ، (نضل) .
٣ بلوغ الأرب (٣/٣٥٥) .
٤ تاج العروس (٩/٦٠) ، (لطم) .
٥ وقد طبع ببولاق بمصر ، (أنساب الخيل) ، (لندن) .

وكتاب الخيـــل لأبي عبيدة وقـــد طبع كذلك ، ومؤلفات أخرى لم تطبـــع حتى الآن[1] .

ولائم العرب :

الوليمة كل طعام يصنع لعرس وغيره ويدعى اليه . وأما الدعوة : فهي أعم من الوليمة ، وأما المأدبة ، فكل طعام صنع لدعوة أو عرس . والآدب الداعي الى الطعام[2] . وولائم العرب ست عشرة وليمة . هي : وليمة العرس ، وهي ما يصنع للدخول بالزوجية ، و (الملاك) (الأملاك) وهي ما يصنع للخطبة ، و (الخُرس) وهي طعام يصنع للنفساء لسلامة المرأة من الطلق ، وقيل : هي طعام الولادة . و (العقيقة) وهي ما يصنع للطفل بعد ولادتـه وتختص باليوم السابع ، و (الأعذار) وهي مـــا يصنع للختان ، و (الشندخ) وهي أيضاً طعام الأملاك ، و (الوكيرة) وهي ما يصنع للبناء يعني للسكن المتجـــدد ، و (التحفة) وهي ما يصنع للزائر ، و (الشندخ) وهي طعام الأملاك كما ذكرت ، وما يصنع عند وجود الضالة ، و (النقيعة) وهي ما يصنع للقدوم من السفر ، وقيل : النقيعة التي يصنعها القادم والتي تصنع له تسمى (التحفة) ، و (القرى) وهي ما يصنع للضيف ، و (الوضيمة) وهي ما يصنع للميت ، أي لأهل المصيبة .

ويقال للدعوة التي تعم دعوتهـــا (الجَفَلى) ، وأما (النقرى) فهي التي تخص دعوتها . قال طرفة :

نحـــن في المشتاةِ ندعو الجَفَلى لا ترى الآدِبَ فينـــا ينتقر

١ أسماء الخيل ، لابن الأعرابي ، وقد طبع بـ (ليدن) ، ولأبي اسحاق ابراهيم بـــن اسماعيل المعروف بابن الأجدابي ، كتاب كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ على الوان الخيل ، مطبوع ، نهاية الأرب (١٠/١٤) .

٢ اللسان (١/٢٠٦) ، (ادب) ، المخصص ، لابن سيده (٤/١٨٨ وما بعدها) ، البخلاء ، للجاحظ (٢٤٦) ، (دار بيروت ، بيروت ١٩٦٠) ، النهاية ، لابن الأثير (٢/٣٤) .

يفتخر بقومه وانهم اذا صنعوا مأدبة دعوا اليها عموماً لا خصوصاً ، وخصّ أيام الشتاء لأنها أيام الشدّة والضيق [1] .

ويقال للطعام المستعجل ، وهو الذي يقدم للراكب : (العُجل) و (العجيل) ، وهو من السويق والتمر في الغالب . واذا أكرم رجل رجلاً آخر بتقديم (اللبن) اليه ، قيل لذلك الكرم (القفي) . ويقال لما يرفع للانسان من المرق (العفارة) . وهنالك أسماء تجدها في كتب اللغة لأنواع المأكول والأطعمة [2] .

---

١ بلوغ الأرب (١/٣٨٥) ، البخلاء ، للجاحظ (٢٤٦) ، المخصص (٤/١٢٠) .

٢ المخصص (٤/١٢٠ وما بعدها) .

obeikandl.com